أولاد القايد

عيسى حموني

الكتاب : أولاد القايد (قصص قصيرة)
المؤلف : عيسى حموتي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٧٥٤٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 102 - 4

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٠٢ ٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

أولاد القايد

قصص قصيرة

عيسى حموتي

تـقـديـــم

الدكتور: محمد يحيى قاسمي

ما زال التراكم الأدبي يثبت يومًا بعد يوم حقيقة لا مراء فيها وهي أن الجهة الشرقية من المغرب فضاء شعري بامتياز، وهي حقيقة تؤكدها الإحصاءات الخاصة بهذا الجنس الأدبي التي تفيد أن عدد الشعراء فاق مائة شاعر. ويؤكد هذا التراكم نفسه أن أدباء الجهة الشرقية ينعطفون بعد الشعر إلى القصة القصيرة بنصف عدد الشعراء.

وهي الحقيقة نفسها التي يؤكدها الكاتب عيسى حموتي الذي اقتحم عالم الإبداع بإصدارين شعريين هما: تضاريس القلق (2010) وأوريات أو مجنون بنت الريف، الصادرة في مصر عام 2011. وها هو ينعطف نحو عالم القصة القصيرة بجرأة فائقة، لينشر مجموعته القصصية التي اختار لها عنوانًا متميزًا هو (أولاد القايد).

وسمى الكاتب مجموعته على إحدى قصص المجموعة فارتفعت لتكون عنواناً للمجموعة كلها، مما يعني أن هذه القصة أقرب دلاليًا ونفسيا إلى ذات الكاتب. وقد وفق الكاتب في اختيار هذا العنوان المستفز إذ لا ينازعه فيه أحد ضمن التراكم القصصي المغربي -فيما أعلم-.

تضم مجموعة (أولاد القايد) أربع عشرة قصة رتبت كما يلي:
قل لها أف – التحدي - ساحر النظام – الإسطبل – التقرير - محاكمة – مصير - نعم للرشوة – الحمال – التبني - تمثال شهريار - الحمار الحزين - أولاد القايد - الحاكم ..

(أولاد القايد) قصص قصيرة ذات معانٍ كبيرة جدا.. فما من قصة إلا وكانت تلمح إلى مشكلة. فهي رمز للسلطة بكل أشكالها ومستوياتها، وهي رمز لفئة حاكمة تمتهن كل أشكال الظلم والطغيان والجبروت. وهي رمز لفئة محكومة تعاني كل أشكال القهر والذل والهوان. وهي أيضًا وعي بقضية الإنسان، وبحث عن طرق الانعتاق من الاستبداد، وساحة للرفض ومنفذ للولوج إلى العوالم المسكوت عنها.

والظاهر أن قصص عيسى حموتي لا تنفتح على الذات والواقع والعالم فقط، ولكنها تحاول أن تقدم رؤية قصصية تتجاوز هذه الذات، وهذا الواقع، وهذه ميزة تحسب لها.
ومحاولة تجاوز هذا الواقع وهذه الذات جعلت الكاتب ينتصر لرؤيته القصصية أكثر على حساب أدواته الفنية، بمعنى أنه ينشغل بالفكرة والموضوع أكثر من سواها.
- ينتصر للتفكير في كيف يرد الاعتبار للفئة المحكومة، للأطفال الذين تنتهك حرماتهم في عقر دارهم: قصة (قل لها أف) نموذج .
- ينتصر للتفكير في كيف يرد للحمال الذي يعاني من تسلط القائمين على الأمن بالبلاد.

- ينتصر للتفكير في كيف يرد الاعتبار للذين فقدوا هويتهم وأصبحوا مجرد أتباع للعولمة الزائفة.
- ينتصر للتفكير في كيف يقف أمام شطط الطبقة الحاكمة واستبدادها وجبروتها.

أما شخصيات المجموعة فقد انتقاها الكاتب بدقة متناهية من الواقع وتناقضاته لتمثل عالمين متناقضين متصارعين؛ عالم أصحاب الفوق، وعالم أصحاب التحت. ومن خلال أدوار شخصيات هذين العالمين المتناقضين المتنوعة استطاع أن يقدم صورًا واقعية يعبر من خلالها عن الفساد الذي يتفشى في المجتمع سواء كان ذلك على الصعيد الاجتماعي، أو السياسي، أو الديني.

وانتصار كاتبنا للرؤية القصصية جعله يبتعد عن بعض التقنيات التي عرف بها فن القص مثل التكثيف والاختزال والإيحاء ليفصل في الأحداث والوقائع تفصيلاً دقيقًا جعل نصوصه أقرب إلى العمل الروائي منها إلى القصصي. لكن هذا لا يمنع من أن الكاتب يعوض هذا الغياب بتقنيات أخرى مثل الحوار الذي لا تخلو قصة منه. أو مثل السخرية اللاذعة أو توظيف الأمثال الشعبية أو المفارقة (نعم للرشوة = لا للرشوة) – (قل لها أف = لا تقل لهما أف).

إن (أولاد القايد) تعبق بروائح التجارب الإنسانية على اختلاف أنواعها، مما يعبر عن عمق تجربة الكاتب الحياتية نفسها.
وإذا وجد القارئ الكريم في قصص (أولاد القايد) ما يعبر عن معاناته وهمومه فذلك نجاح يحسب لكاتبها عيسى حموتي.

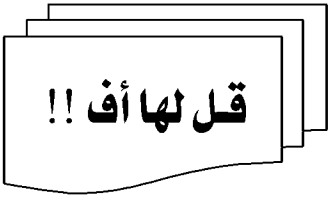

وقف وهو في الثانية عشرة من عمره في زاوية من الشارع مظلمة، لا لنقص في الإنارة العمومية، ولا نتيجة إهمال من المصالح العمومية، بل لمَّا كان الحي يحفل بالأنشطة اللا مشروعة؛ اشترى المعنيون بالنشاط الظلمة من المشرفين على الإنارة.

وقف الغلام ينتظر مترقبًا وصول أخيه الأصغر، سرعان ما لاحت طلعته النحيفة وكأنه لا يتجاوز العشر سنوات، سلَّم في لامبالاة والألم بادٍ على محياه..

- كم معك؟

- القليل !.

- هل تريد أن يكون حظنا من العصا حظ الطبل منها يوم عيد الطبول؟

وهو يلقي بيده في جيبه، انطلق مسرعًا...

توقف ودقَّ على أحد الأبواب، وبعد برهة عاد يحمل بضاعة ملفوفة في ورق الجرائد داخل كيس بلاستيكي أسود.

في طريقهما إلى البيت يظهر الصغير منهكًا لا تكاد رجلاه تقوى على حمل جسمه النحيل.. يلتفت إليه أخوه من حين لآخر، يستحثه، ولما يئس من الالتماس، سأله بنبرة خشنة عن سبب ضعفه في عدم مجاراته في مشيته كالعادة.. خرج الطفل من صمته والألم يستبد بقلبه ويخنق صوته:

- أخي، لقد تعرضت لاعتداء.

- أعرفك تمام المعرفة.. تبدأ المشاجرات ولا تعرف كيف تجنب نفسك شرورها !

- أخي، لا يتعلق الأمر بخصام كالعادة !

- أعرف أنك قلدت أشرار السينما؛ سرقت من هذا، صفَّر ذاك، وأحاطت بك العصابة، ضَربت وضُربت، ثم أخرجت السكين...

وعاد الطفل إلى صمته تاركًا أخاه يسرد عليه كل القصص التي سبق أن سمعها منه؛ الواقعي منها والمؤلف والجامع للحقيقة والخيال.

ما إن انعطفا في زاوية الزقاق حتى لمحا أمهما عند الباب منتظرة على عجلة من أمرها، اشتمَّ الطفلان سوء العاقبة، حثَّ الأكبر مشيته إلى درجة حمل معها رجليه على الركض، سلَّم أمه الكيس وغاب في الزقاق حيث ابتلعه الظلام.

أخذت أصوات الأطفال الصاخبة تخبو في الشارع، وخُطى المارة تتلاشى إلى أن خيَّم الصمت... قرع الطفلان الباب وظلا ينتظران وقتًا غير قصير، لا ينبسان، وهما يحترقان في جحيم عالمهما.. فُتح الباب، فإذا بامرأة بدينة لا تقوى على حمل جسدها؛ لا لثقل وزنها فحسب؛ كل ما قدرت عليه هو تحريك يدها دون أن ترفعها مشيرة لهما بالدخول.

مشيا خلفها، وفي كل مرة تفقد توازنها وتهوي؛ يسرعان لتداركها ومساعدتها على استعادة توازنها. دخلا الغرفة ليجدا وكالعادة؛ رجلاً شبه عارٍ ينشر جسمه على السرير.. بصوت غليظ وفي عدم اكتراث سأل:

- لمن هذه الفراخ ؟

أجابت بلسان وكأنه حُقن بمادة التخدير الطبي:

- لا تلق بالاً يا حبيبي، لا تزعج نفسك !...

- نضبت العين، ابعثيهم عند "الچرَّاب"* !

قبل أن يرحلا، بعثت الأصغر منهما ضفادع بطنه ناحية المطبخ، فتسلل خلسة، وعوض أن تقع يده على كسرة خبز يسدُّ بها رمقه، وقع بصره على مشهد لم يظن يوما أنه سيحدث، فالروح الطاهرة كما كان دومًا يعتقد، الروح التي طالما عوضته عن

---

* (الجيم بثلاث نقط، والراء مدغمة: حامل القربة)

حنان الأم وحنو الأب، الروح التي كثيرًا ما أمدته بالعون؛ تخفي عن الأم الكثير من أسراره والكثير مما تعتبره الأم ذنبًا أو خطيئة، هذه الأخت التي لم تتجاوز ربيعها؛ بل خريفها الرابع عشر، عارية تمامًا يفترسها شيخٌ هرم يمسح على نهديها الصغيرين بلحيته البيضاء...

أخبر أخاه الأكبر...

وجد الطفلان جسميهما يصليان زمهريرًا في ليل بهيم. أشعلا نارًا تنير ليلهما وتدفئ جسميهما، لكنها جرَّت عليهما شرَّ وحشين خيرًاهما بين أمرين :أن يقتلا أو....

وفي الصباح الباكر شوهد الطفلان في طريقهما إلى وسط المدينة.. وشوهدت جثة شيخ في الجوار، يقال إن متسكعًا طعنه من الخلف وهو غادٍ لأداء صلاة الفجر... وعند الله علم كل شيء. ولقد قيل" إذا ضعيف حاق به جور وانتقم، فالشظايا تصيب كل ما حولها، ولا ينجو من شرها شيطان. "

• • • •

ارتدى بذلة الرياضة التي كادت الأملاح أن تعصف بنسيجها، وعلى غير المعتاد، ووفق ما دأب عليه خلال شهر رمضان المبارك؛ خرج ليركض بعد أن رسم في ذهنه خريطة المسافة التي قدر اجتيازها وعقد العزم على قهرها دون توقف أو استراحة. فهو قبل كل انطلاقة لا بد أن يقدر إمكانياته ومدى قدرته على تحمل الحرارة أو الرطوبة أو قوة الريح واتجاهها أو تساقط الأمطار والأرض الموحلة... وعلى ضوء هذه المعطيات يحدد تحديه.

خرج بإيقاعه المعتاد، وبعد أن قطع شوطًا لا يستهان بمسافته سمع خلفه وقع أقدام، دون أن يلتفت تجاوزه مجموعة من الشبان يهرولون بخطى ثابتة تنم على أنهم ذوو إرادة قوية وعزم أكيد وتصميم على بلوغ الهدف، يلبسون أزياء أقل ما يمكن نعتها به أنها "ماركة" عالية الجودة وقد تكون مستوردة.

أخذت الجماعة تبتعد وهي تتقدمه، وهو يغالب عقبة حادة الارتفاع، تطلبت منه جهدًا؛ بل عناءً، يغالب أثر ما ينيف عن

خمسة عقود من الزمن محافظًا على إيقاع خطاه والعرق يتصبب من كل جزء من جسمه، يرى أن الاستسلام إهانة للذات، وفي احترام الذات تكمن المسؤولية، وهذه تستدعي التفاني وإتقان العمل.

ما أن بلغ أعلى العقبة ولاح له المنحدر، حتى هاله منظر الشباب وأجسادهم ملقاة على العشب، صدورهم تعلو وتميد وكأن الأنفاس تكاد تفلت من قبضتها، لما تجاوزهم بقليل قرعت أذنيه قهقهات توقع على أن لا خارطة لهم ولا بوصلة، وأن حركاتهم هذه نتيجة لاستبطائهم ساعة الإفطار، فخرجوا يستعجلونها.

وصل الرجل إلى نقطة العودة وقفل راجعًا، غير آبه لحرارة الشمس ولا لطول المسافة، لحق بهم وهم يمشون وآثار العياء بادية عليهم، ترتسم على خطواتهم، استرق إليهم النظر وكاد يقول: افطروا، إن من شروط الصيام القدرة. "والحسرة تملأ قلبه دون أن تثنيه عن عزمه".

وبعد وقت يسير انتبه إلى وقع أقدام تقتفي أثره، وسرعان ما سمع صوتًا فيه ليونة يطغى عليه تردد أنفاس متقطعة وهو يقول: " هل تسمح لي ببعض الأسئلة ؟"
ودون أن يؤذن له طرح أسئلة عديدة ومتلاحقة، وكأنه لا ينتظر الجواب على أيٍ منها، ولمَ ينتظر الجواب والأمر عنده سيان ؟ ولم يحظ بجواب.

استعاد الرجل سؤال الشاب حول "النفس" وفي صمت، ويحرك رأسه من حين لآخر، معربًا عن عدم الرضى: إن النفس يكتسب بالأيام والشهور والسنوات، لا يتوقف عند جيل دون آخر، بل هو مشعل يستلمه اللاحق من السابق، ويعمل على تعهده ورعايته فيسلمه في نقائه وصفائه، وبذلك يساهم بلبنة في البناء... أما هذا النوع من الشباب فيغتال النفس...

ومرَّت الأيام والأسابيع والرجل وفيٌّ لنهجه، وبينما هو في إحدى جولاته الرياضية لحقت به كوكبة من الشباب من خلال وقع الأقدام أدرك كثرة عددهم، ألقوا التحية، فتيان وفتيات، فبادر أحدهم بالكلام، انبعث صوته من وسط الجماعة، يشرئب محاولاً الاقتراب:

- ألا تذكرني يا عم؟ هل تذكر جماعة من الفتيان، في أحد أيام شهر رمضان المبارك؟

كيف لا يذكر وكم آلمه ذلك المشهد ولازال يؤلمه لحد اللحظة، خاصة وأنه يتصور أن المنظر سيتكرر اليوم لا محالة.

سارت الجماعة كوكبة واحدة، تتقدم بخطى ثابتة، تطوي المسافات، وبطلنا وفيٌّ لإيقاعه لا يقوى على اقتفاء أثرهم...

وصل إلى نقطة العودة، قفل راجعًا وهو متأكد أن الجماعة الآن ملقاة على جانب الطريق، ومما زكى لديه الفكرة تواجد الفتيات.

وعلى بعد مسافة من نقطة الوصول تحلقت حوله الكوكبة جميعها، التفت الرجل خلفه، قد يكون هناك باص أقلهم !!!...
انتابته حيرة واندهاش في الوقت ذاته، لكن سرعان ما أسعفه أحدهم:

- اخفضوا الإيقاع حتى نساير وقع خطوات هذه المفخرة... كيف الحال؟ لازلت كما طبعتني في ذلك اليوم، بنفس العزم، بنفس الثبات، لكن قل لي ما رأيك في الشباب بالمقارنة مع ما شاهدته في السابق؟

- لا يمكنني إلا أن أحييكم، لكن مع بعض التحفظات !!..

- أتفهمك جيدًا.. !! وأعدك أننا سنفاجئ العالم من حولنا، دعنا من هذا يا عم! أنت مثالٌ للتفاني، ونحن في حاجة للاستفادة من خبرتك الواسعة، ولكني أراك دائمًا على نفس المسلك، على نفس المضمار، ونفس المسافة، وبنفس الإيقاع، ولما كنا كلنا نسعى لبلوغ نفس الهدف، يشرفنا أن نشتغل معك جنبًا لجنب، ولذا نقترح عليك أن نرتب مواعيد لممارسة أنشطتنا معًا بعيدًا عن"المخزنة" و"الفأسسة"مادمنا لا نختلف عن الهدف. لكن قد تختلف الطرق والمسالك، فنحن اليوم مثلاً قطعنا المسافة المعلومة، وفي الاتجاه المعلوم، في كوكبة مجتمعة. وفي الجولة المقبلة بحول الله، مسارنا بدون شك سيتغير، والمسافة ستزيد أو تنقص، ونوع النشاط في حد ذاته لن يقتصر على

الركض فحسب... أكيد سترافقنا، سنراعي إمكانياتك إن كنت لا تزال في لياقة الشباب أو بدوت أفضل، سنحاول مجاراتك، إذا انتابك التعب سنرغمك على الاستراحة، وإذا أصابك مرض سنسعفك، وإذا عجزت سنحيلك على التقاعد، لا إقصاء ولا إبعاد، بل لنريحك من العناء لأننا مهما بلغنا فنحن في أمّس الحاجة لحكمتك، فأنت كفاءة حية، والحي يبقى حيًّا على الدوام.

- لازلت مندهشًا في أمر هذا الشباب الذي كان بالأمس يغتال النفس... من حيث المبدأ، باسم الله وعلى بركة الله، أما الأسس والقواعد العامة والاتجاهات والتوجهات والعياء والمرض و... فيجب أن تُتدارس...

مضت بضع سنوات على عزم هذا الشباب وعلى دخوله حلبة السباق... ولا زلنا ننتظر حصادهم، لقد تأهلوا ونحن لحد الآن ننتظر، ننتظر التتويج، ننتظر الميداليات لنرى العلم الوطني في طليعة الأعلام.

• • • •

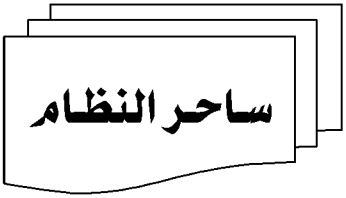

ساحر النظام

- أطلب حالاً !! أطلب ساحر النظام !! بدل أن تضيع الوقت في الركوع، نفذ !!!...

- أين أنت؟ لماذا لا تحضر قبل الوقت الذي أنوي فيه المناداة عليك؟ لماذا كل هذا التقصير في الواجب؟ وصلتني أصداء تقول إنك تبدي بعض الليونة تجاه بعض من أنت مسؤول على العمل فيهم والاشتغال عليهم !!. أجب بسرعة ! وبدون تفكير

- أملي ومناي إرضاء مولاي، ولا شيء في الكون يشغلني عن خدمة ولي نعمتي...

- ألم أقل : بدون تفكير !!!

- عفوًا يا مولاي أنا لا أفكر، أنت من يفكر، فمنذ عهد بعيد وأنت تفكر، ولك تجربة غنية في التفكير، أنا خلقت لأنفذ، وتجربتي في التنفيذ لا تزال ضعيفة.

- هذا واضح أيها الأحمق، منذ متى أتقن أمثالك عملهم؟ هات ما عندك !

- إنني منشغلٌ في استحضار القوى من مختلف الظواهر: من النار، من الرياح، من الرعد والبرق... أتمرن على التحكم فيها بدقة وإتقان، أشحنني بما أستمده من طاقات من البراكين، من الأنواء، من الفيضانات والأعاصير...

- وماذا عما هو موكولٌ إليك؟

وقف الساحر معتدلاً، رغم ارتجاف ركبتيه أحسَّ بنوع من الزهو يدفئ صدره، وأخذ يستعرض إنجازاته وهو متأكد أنها ستحظى برضا شهريار... لقد سلَّط على من مسخهم، وصاروا جرذانًا، من قوى الشر ما جردهم من كل أنواع قدراتهم حتى أضحوا لا يستطيعون المشي إلا وهم يتلمسون الجدران، أما جحورهم فقوض لها من القوى ما يتحكم في تضييقها أو توسيعها على عكس ما تطلبه الحياة ويتحكم في حركاتهم وفي سكناتهم، على شاشة. هذه القوى تُقرأ أحلامهم وآمالهم حتى قبل أن يفكروا فيها... أما العمالقة فقزَّم أعدادًا هائلة منهم، بعد أن كانوا يصولون ويجولون أصبحوا أقزامًا لا حركة لهم ولا صوت، أضعف من الضعف نفسه...

أما الضفادع فلم تُختر لها هذه الهيئة عبثًا، لقد أفرغت جماجمها من كل مادة حيوية وحُشيت بالنخال حتى أصبحت تزقزق عوض أن تنق، وللتأكد من مدى نجاح التجربة، وُضعت في مستنقع تضبط درجات الحرارة أو البرودة حسب ما تقتضيه

المصالح العليا، وهكذا لا يمكن إطلاقا أن يصدر منها ما يثير القلق... وأما القردة، ففي ردة الطرف تحولت عصاه إلى سياج، حولها وفي سمائها، وحتى تحت الأرض، وبتقنيات لم يسبق لها مثيل في كل العوالم. حسبك أن تعلم أن السياج مجهز بآلات لا تُرى، ينطلق إنذارها عند الاقتراب منه بمسافة متحكم فيها حسب الأوضاع والأوقات.

وما أن انتهى من هذا العرض حتى فاجأه شهريار.

- اسمع أيها المغفل، احترس، كُنْ منتبهًا أكثر، لا أريد أن تغفو لحظة واحدة، كما لا أريد هفوة في العمل. ومن جهة أخرى؛ لا أسمح بأي تبرير كيفما كانت قوته أو ضعفه. والآن إليك مهمتك الجديدة، أنجز ما تؤمر به بحذافره، وإلا استفرغت كل قواك.

سلمه الحاجب مظروفا، استلمه، ركع ومضى يتنفس الصعداء، اجتاز البهو والعرق يعيق حركته... ألقى الظرف واستلقى على ظهره وعيناه مثبتتان إلى السقف... لم ينتبه إلى الوقت حتى سمع الحاجب يُعلمه برغبة شهريار في إطلاعه على الشوط الذي قطعه في المهمة الجديدة. وعاد الحاجب من حيث أتى.

لقد حول العرق إلى حلي، يقول إنه لا يوجد لها نظير لا في كمها ولا في نوعها. ساقها إلى حيث تكنز عبر أقطار الأرض واحتفظ ببعض النماذج لخزائن القصور، وأخرى كهدايا لمن يركع أمامهم مولاي، ومن هو لهم مدين. والدماء المجباة حالت

"دولارات" خضراء، و"أوروهات" عنها ضاقت كبريات أبناك الكون ووكالاتها، في كل زاوية من العالم.
والغريب أن دموع البؤس نبتت في كل محيط، ، في كل بحر، جزرًا كالفطر أما ثدي الأم فمدت منه مباشرة إلى القصور أنابيب تصب في صهاريج: صهاريج النار والاستحمام.
هذا ما أنجزه إلى حدود اللحظة التي زاره فيها الحاجب.

استدعى شهريار ساحره.

- لا حاجة أن... لا... لا... عد إلى عملك !

- إذا أذنت عظمتكم، لقد لقيت مضايقات في عملي من لدن شهرزاد...

- لا تهتم ولا تلق بالاً، فشهرزاد لم يعد لحكاياها جدوى، يكفي ما هدر من وقت ثمين، لقد شغلتني لأمد طويل عن شؤوني، وحان أن تخون كبنات جنسها.

تمتم بينه وبين نفسه :

- الشكر للقوى العظمى، آن لهذه الصخرة أن تزاح من طريقي.

كانت شهرزاد عائدة من حصة تحريض في غياب الساحر، استطاعت إقناع الأقزام والمسوخ بالتمرد ضد شهريار وسحر النظام، وضرورة تنفيذ الخطة بإتقان، عندما التقت في الرواق بالساحر، قبل أن يدنو منها صدر من أعماقها فحيح كشواظ نار من فم تنين، أصاب الساحر على مستوى الصدر، دفعه إلى

الخلف ليسقط على حافة الصهريج حيث لا زال شهريار يسبح ينعم بما تجود به الأم حتى، على العقوق من أبنائها، يبدو أن الساحر استنفذ قواه في المهمة الأخيرة دون أن يلقي بالاً.

وفي لمح البصر عجَّ المكان بالأقزام والمسوخ، والساحر ملقى على الأرض شيئًا فشيئًا تخور قواه، والأقزام والمسوخ شيئًا فشيئًا تستعيد هيئاتها وأشكالها، إلى أن استوت على صورتها "مهيار" ينعم بكبرياء.

مدَّ شهريار يده نحو المنشفة فحيل بينه وبينها، وقف فاغرًا فاه وساحره يتنازل ويتنازل أكثر فأكثر على أمل أن يُسمح له بالبقاء على قيد الحياة.

حاول شهريار أن يدخل عبثًا في حوار مع الجمع الواقف صفًا متماسكًا، بيد كل فرد ولاعة بلهيب أزرق، ما كان له أكثر من أن يتحدث إلى نفسه :

- لِمَ لم أفكر يومًا في مثل ذي الحال مصيرًا لي؟ أ أغادر عاريًا، أم أموت حرقًا في ذا الصهريج ؟ أم سيكون مصيري أفضل من حال هؤلاء في الماضي؟.

• • • •

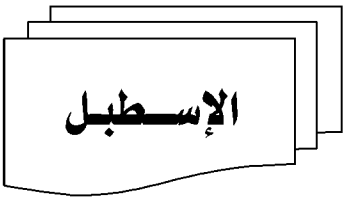

الإسطبل

كلُّ المساحات المحيطة بالإسطبل الذي تقارب مساحته الهكتارين، المجهزة وغير المجهزة منها، أصبحت حيًّا آهلاً بالسكان. عملت المصالح المعنية على تجهيز الحي بشبكات التطهير والماء الشروب والكهرباء، ومؤخرًا استفاد من عمليتي إعادة تعبيد وتعبيد جميع أزقة الأحياء وشوارع المدينة.

أصبح السكان يعانون من أضرار شتى داخل البيوت وخارجها من جراء حركة الأبقار المقادة إلى السوق فجرًا، ومنه ضحى، وصياح السائقين ووقع أظلاف الأنعام، وروائح القطعان، وثغائها ورغائها وروثها الذي يخضب وجه الأرض، وما لهذا من انعكاسات على صحة المواطنين؛ وعلى وجه الخصوص أطفال اليوم ورجال الغد.

رفع السكان تظلمهم إلى مختلف جهات الاختصاص دون أن يجدوا من يصغي أو حتى يسمع، والمصالح تتقاذفهم من جهة إلى أخرى وهم في سعيهم ككرة "روكبي".

وبعد مرور وقت غير وجيز لاحظوا أن جهات عدة تتعصب أو قل تنتصر لأخيها الحيوان على حساب أخيها الإنسان وذريعتهم منطق "البقاء للأسبق". يوم بعد يوم تشتد المعاناة إنْ في الحي أو في مكاتب المصالح، من حيث يطرد المتضررون:

- "اخرج من مكتبي... استدع الأمن... " غد نوريه الزنباع فين يتباع".

ويعتمد أحيانًا مختلف أساليب الاستفزاز إذ يُختار أحدُ أشباه المواطنين يُعلم إتقان هذه الأساليب:

- ما خطبك يا رجل؟ إن هذا المسؤول "وليدة " رجل بالغ الطيبوبة... أنت يا أخي لا تسيطر على أعصابك. "ما عندك عقل" أنت لا تساوي شيئًا، حثالة.

- نعم نعم من أنا؟ كيف تسمح لنفسك أن تهينني؟

وفي هذه الأثناء، مال المستفز بكتفه على المواطن بعنف حتى كاد يسقط. قبل أن يصدر من هذا الأخير شيء شك أن وراء هذا التصرف دافعًا ما، وهو لا يزال في سبحته السقراطية إذ بقدم تطأ رجله، هذه المرة لم يدع الألم مجالاً للتفكير.. وبصوت عال:

- ما بك أيها" القواد"؟ من سلطك علي في هذه الصبيحة؟

ويفتح باب المكتب حيث يلتفت الناس.. وفي هذا الحين انسحب المستفز ليتوجه المسؤول مباشرة إلى المواطن:

ـ هذا أنت ؟ أنت من يحدث كل هذه الفوضى ؟ تعرقل مصالح المواطنين ؟

وهكذا تحول من مطالب بالحق إلى محدث للفوضى داخل إدارة عمومية، والحاضرون على ذلك شهود ما دام المسؤول من اتهمه بذلك...

إصرار السكان على حقهم أجبر الجهة المسؤولة على إصدار قرار يقضي بإغلاق الإسطبل. فرح السكان وتبادلوا التهاني... وداعًا أيتها الأزبال، وداعًا الأمراض، وداعًا الإزعاج.

مرَّت الأيام والشهور والسنون ودار لقمان على أسوأ من حالها: القطعان في ذهاب وإياب، وروائح الأبعار المعجونة بالأبوال تحت رفس أظلاف الأنعام تنشر عبقها داخل بيوت الحي، فامتنع فتح الشبابيك وامتنعت نعمة الهواء على السكان.

استيقظت من جديد من سباتها همم السكان، أو بعبارة أخرى أفاقوا من تأثير تخدير عطور الإسطبل، وبدأ السعي مرة أخرى في أشواط يعلم الله على ما ستتمخض خاصة وأن الكثير من وجوه أهل الربط والحل تغيرت أو تلونت. وبعد مرور الشكاوى والرسائل عبر القنوات الإدارية يقتحمون مكتب المسؤول، يستقبلهم بروح كلها مواطنة يعدهم بعدم السماح بمثل هذه

الظواهر التي تعتبر وصمة عار على جبين المدينة في ظل المبادرة السامية للتنمية البشرية، ويضرب لهم موعدًا في أجل مسمى.

تصل جماعة تمثل السكان حسب الموعد يقفون أمام الكاتب؛ أو بعبارة أدق الحاجب؛ وكلهم إيمان وتفاؤل، وبعد السلام..

- ما سبب تشريفكم؟

وبعد أن استمع، طلب منهم الانتظار خارج المكتب.. لم يبد على وجوههم أي اعتراض. مرَّ وقت وهم يتحدثون فيما بينهم قبل أن يطل عليهم الحاجب:

- السيد الرئيس في اجتماع لا يمكنه استقبالكم.

في الأسبوع الموالي كان الرئيس في مهمة ميدانية، وهكذا أخذت مهام المسؤول من معاينات ميدانية - إلا معاينة الإسطبل - تحول دون أي تقدم، والسكان اشتموا من روائح التماطل والتسويف - وكيف لا وهم من دأبوا على استنشاق مثل هذه "الماركات" من الروائح، كل يوم حتى التصقت بأنوفهم - أنه أصبح ينتمي إلى جمعية الانتصار للحيوان ظالمًا أو مظلومًا، ولا أدل على ذلك من تسويغاته الواهية من قبيل أن الإسطبل هو المزود الوحيد للمدينة باللحوم وإذا أغلق يحدث اضطراب في المدينة وخاصة في معدات "الكانبال".

وزاد إصرارهم، وأمام هذا الإلحاح لم يجد صاحبنا بدًا من السماح بتمرير الملف عبر القنوات الرسمية. وبعد مخاض عسير صدر قرار يقضي بنقل الإسطبل إلى ا لمجال القروي.... ولا زال المتضررون في سعي دائب لتفعيل محتوى القرار. وبينما كان يومًا اثنان منهم مارين بأحد شوارع المدينة إذ لمحا أحد مستغلي الإسطبل ينزل كبشًا من سيارة لنقل البضائع..

- أنظر أنظر هناك هناك ، الرجل الذي يسحب الكبش من قرنيه هل تعرفت إليه، إنه... ؟؟!!!

- عرفته وعرفت الذي يقف بالباب، تحل بالصبر قليلاً حتى نهاية المشهد!!!

أدخل الكبش وفي عتبة الفيلا، وهما يتوادعان انحنى الزائر وسلم مقبلاً يد الرجل. التفت الرجلان نحو بعضهما.

- أتدري ماذا كنا نفعل طيلة هذه السنين !!!

- كنا مع كل رسالة أو شكوى نسلمه ظرفًا !!!

- ومع كل مناسبة نسوق إليه كبشًا !!!.

• • • •

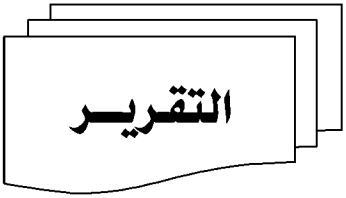

أودع عُدة العمل، غادر ورجلاه لا تقويان على حمل جسده، وشقاء يوم كامل من العمل المضني مقرونٌ بهمومٍ لا تُحصى يثقل كاهله، ينتابه إحساسٌ بأن رغم المنهجية، ورغم النظام والترتيب، الوقت من حوله كل يوم يضيق عن العمل أكثر من ذي قبل... استلقى عل المقعد الخلفي داخل سيارة الأجرة، وهو يتأوه تارة ويتثاءب أخرى وثالثة يدغمهما. انتبه السائق لحاله فسأله، ودون اكتراث ألقى إليه بشبه جواب لا يفصح فيه عن شيء، وهو متجه نحو الشرود.

"التقرير اليومي !! كل يوم تقرير !!! كل يوم !!! كل يوم !!! لماذا على سزيف أن تتلخص حياته في تقرير؟

يرصد حركاته وسكناته، بل عدد حركات الأنامل التي داعبته ، عدد الأوراق التي افتض نصاعة بياضها، حجم الحبر الذي سكبه عليها، درجة تخصيبه لها وحتى حجم المسكوب منه في التسويد، رغم عقمه، أما عن المواضيع التي خاض فيها ومن أي الزوايا تناولها فحدث ولا حرج... "

دخـل البيـت منهكًـا، علـى غيـر العـادة لـم يحـظ باسـتقبال زوجتـه"فرشـاة" التـي كانـت هـي الأخـرى منهمكـة فـي معملهـا تكتب تقريرها اليومي بعد أن انتهت من تلطيخ القماش. لولا الصخب الذي أحدثه "قلم" في المطبخ، وهو يحاول خدمة نفسه بنفسه، يهيئ كأس شاي، يعدل مزاجه، ويساعده على الاسترخاء بعد أن خرج من الحمام، لما انتبهت لوصول زوجها. تجردت من وزرتها وبسرعة مررت يديها مرات في شبه منشفة لتلتحق بـ" قلم"الذي كان قد ألقى جسمه على طول الأريكة. بعد السلام سألته عن يومه كيف وفيما قضاه.

امتعض في صمت:

- يـا رب ! كُـلٌ يطلـب تقريـره، لازلـت أتأهـب لكتابـة التقريـر الإداري، وها هو...

- ماذا تقول ؟ لم أسمع شيئًا !

- كان يومي شاقا أكثر من ماضي الأيام، فلا التجربة ولا طول الممارسة أفادا في التخفيف من هذا العناء ؛ لقد عرجت إلى الفضاء، حيث كان موعدي مع طائر مهاجر يحمل حقائبه متجهًا غربًا، وما أن أنهينا حوارنا حتى وجدتني مرتبطًا بموعد ثان، وكان على الأرض كلفني عناء الهبوط، وقبل الانتهاء بلحظات رنَّ الهاتف، تذكرني السكرتيرة بموعد في مستنقع مع أحد الضفادع... ولا زالت رحلة شقاء يومي لم تنتهِ بعد، إذ لازلتُ لم أحرر التقرير.

- ألا زلت لم تحرر تقريرك ؟ لم لا تقتدي بي ؟ فأنا لا أغادر المعمل قبل أن أتخلص من عبئه.

في هذه الأثناء حمل نفسه على الكتابة:

- كنت محظوظًا في صبيحة هذا اليوم، داعبتني أنامل أرقٌّ من الرقة، طرية طراوة البوضة، شرفت بافتضاضها بكارة صبحي، فانطلقت منسابًا، مستجيبًا لنداء الواجب ؛حلقت في الفضاء رفقة طائر، أجريت معه الحوار التالي:

- أراك متجهًا غربًا، لم هذه الوجهة؟ ولم لا تولي وجهك ناحية الشرق أو الجنوب؟

- حبذت لو كان سؤالك : لم الهجرة؟ لأن الهجرة في معظم الأحيان تكون نتيجة لضغط ما، ونادرًا ما تكون للتسلية أو السياحة، والضغوطات تختلف من كائن إلى آخر. والوجهة تحددها الدوافع، والكائن منا حينما يعقد العزم، يتجه إلى حيث قد يجد ذاته ويحقق نفسه، فأنا أختلف إلى حيث لا جليد ولا صقيع، فهذه الأجواء تجمد صوتي وتخنق نبراته، أما وجهتي فتمتاز باختلاف حدائق الأنغام وتنوعها، وتمتد بلا حدود، لا تسائلك عن مقامات شدوك، ولا ترغمك على تكييف تغريدك على سلالم موسيقية معدة سلفا، لأن النبرات لا تتحكم فيها قواعد خارجية، وإذا حدث مجتها الأذن، واستهجنتها الأذواق.

- وهل ستعود يومًا ؟ ومتى ؟

- أجل لا بد من العودة، طال الزمان أم قصر، إما أن أجد حشودًا في استقبالي، ولن أتمكن من رؤيتهم، وإما متقاعدًا، وقد تركت شدوي.

ولم أكن في اللقاء الثاني، بنفس المزاج الصباحي، لقد وجدتني بين أنامل خشنة، أجري حديثًا مع أحد الببغاوات، كان كلامه كله نحيبا نتيجة فقده لذاته لا هو طائر - كما يرى - ولا هو إنسان، لا يشدو شدو الطيور ولا حديث الإنسان، فكل ما يمكنه فعله هو ترديد - في غباء - ما يلتقطه من كلمات، فغدا لا يطيق وظيفة التسلية التي التصقت به، يرى نفسه كصبي أو كمعتوه.

نزلت إلى المستنقع، وجدت الضفدع في انتظاري فسألته عن صوته المكرور ولم لا يصدره إلا ليلاً، وقلَّ وندر أن يُسمع نهارًا، كما حاولت أن أعرف منه سر بقائه في المستنقع وهل فكر يومًا في تغيير المقام ليحيا في مكان أنظف، فوجدته يرى في المستنقع النظافة عينها وفي روتين صوته منتهى البلاغة وأعذب الألحان، لا حاجة أن يصيت في وضح النهار ما دامت كوابيس ليله ترغمه على النقيق.

بعد كل ما سمعته اليوم سمحت لنفسي بالتفكير في إجراء حوار مع ذاتي:

- أيها القلم، ألم تفكر في الهروب من الصقيع ؟ ألا ترى معي أن الجليد يجمد الحبر في أوصالك، ويصيبه الحران ؟ ألا ترى من

جهة أخرى أن الهجرة تجدد الطاقات، تحقن الشريان بمداد فيه جدة، وألوان أقواس السماء؟

- لا أذكر أن الفكرة راودتني في الماضي، لم أولِ الأمر اهتمامًا لأني مجبر على البقاء، علي أن أقاوم، أواجه، أعبئ، إذ لا يمكن للساحة أن تحيا بلا قلم ؛ فمهما كبوت أو سقطت، ومهما ديس علي أو تعرضت للمصادرة؛ سأظل هنا أعلن حضوري.

مباشرة بعد الانتهاء من الصياغة، رُفع التقرير، وفي صبيحة اليوم الموالي، توصل باستفسار:

"إذا كنت قد استهلكت عُشُر حبرك - كما أثبتت حساباتنا - في تسجيل الحوارات التي أجريتها اليوم، ونحن نرى على صورتك التي أرفقت بها التقرير أنك استنفذت نصف محتواك، ففيما استهلكت الخُمُسين؟"

- سأظل هنا أحارب كل بلادة تهين الذكاء.

• • • •

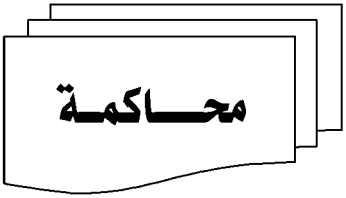

لاحظت الزوجة أن "عبد ربه" عاد إلى البيت، على غير عادته مبكرًا، وعلى وجهه أثر التعب، فلم تشأ إزعاجه بالاستفسار عن سبب عودته، واكتفت بمساعدته على التجرد من معطفه والدخول إلى غرفته... واستلقى على سريره...

دخلت هيئة المحكمة، يتقدمها رئيس الجلسة.. وقف الحاضرون احترامًا.. عادوا للجلوس.

كعادته في كل ملف ، تأكد من حضور أطراف القضية، ثم توجه إلى المدعيين :.....

- أنا عبد ربه، وهذا أخي عبد نفسه، كما سبق الذكر ، نحن أخوان شقيقان، عشنا كل حياتنا في خصام ونزاعات، سلبنا العداء أفضل ما يجمع بين أخوين، حتى أصبح كلانا يمقت أخاه مقتًا، يقدم له أبشع الهدايا في أجمل العلب ويصنع له أقبح الصور بأزهى الألوان من تلطيخ يد الشيطان.

دون أن يرفع رأسه، وهو لا يزال منكبًا، يجر القلم على أوراق الملف، توجه الرئيس بالكلام إلى المدعى عليه:

- اطلع هيئة المحكمة على هويتك ثم أقسم !

عمَّ القاعة صخب، رفع الرئيس عينيه فلم ير المدعى عليه أمام قفص الاتهام ، رأى على الوجوه هلعًا، خاصة وأن صوته يملأ أرجاء القاعة.. وبعد وقت غير وجيز، استعاد الرئيس تركيزه، استعمل مطرقته. عاد الهدوء إلى القاعة نسبيًا.. بادره الرئيس:

- اسمك الكامل

- اسمي "عداء" أبي "جهل" وأمي" فاقة"

- أين أنت يا "عداء"؟

- أنا هنا.. داخل المدعيين.

- ولم أنت هناك.. لم لا تغادر؟

- لا أعرف يا سيدي.. لا أقدر..

- وكيف تحتل مكانين مختلفين في نفس الوقت ؟

- أنا مجبر.. لا خيار لي.

عاد الرئيس إلى المدعيين، يسأل عن موضوع الادعاء:

- لا نريد إلا التخلص مما نحن عليه من علاقة.. التخلص من هذه الصخرة التي ربضت على سقف علاقتنا.

التفت الرئيس إلى مستشاره، يبدو من خلال انقباض عضلات وجهه أن الاستشارة غثة، والتفت ناحية المستشار الآخر... فطلب مناداة الشهود.

بعد الإدلاء بالهوية وبعد أن عُلم أنها أمُّ المدعيين، وأن الشاهد الثاني أبوهما، طلب منها أن تدلي بكل ما تعرفه عن علاقة ولديها ببعضهما..

- نعم سيدي، هذان ولداي - ومن لا يعرف أولاده؟ - ربيتهما أحسن تربية، وأطلب من الله أن يحفظهما.

- هل كان ولداكِ يتخاصمان؟ وهل تعرفين أسباب عداوتهما؟

- وأولادك ألا يتخاصمون؟ كل الأولاد يتخاصمون.

- طيب.. هلا حدثتنا عن طفولتهما؟

- أجل كان الأكبر مجدًا في دراسته، معتنيًا بنفسه، أما الأصغر فكسول، أخرجته من الدراسة ليفيد في مساعدة والده على توفير لقمة العيش لثمانية أفواه، وتغطية مصاريف دراسة أخيه التي كانت تكبر كلما ازداد تقدمًا...

في هذه الأثناء توجه الرئيس صوب المدعيين، في نفس الوقت كان أكبر الأخوين يهم بالاستئذان للكلام... أذن له... أحس لوهلة أن الصمت يخيم على القاعة، قبل أن يستجمع أنفاسه، ويسبح في ماضيه البعيد، انطلاقًا من قعقعة صوت الأم في الحجرة الضيقة المنعدمة المتاع:

- قم.. قم أيها" الحلوف" قم إلى العمل.. من أين لي أن أوفر ثمن حذاء الرياضة لأخيك الذي ظل محرومًا طيلة شهر كامل، وأنت تنام غير آبه لشيء؟

- أنا أيضًا في حاجة لحذاء.

- قم.. لا تماطل، لما يحظى أخوك بالحذاء، انتعل أنت حذاءه.

- كيف ومقاسه يكبر بكثير مقاس رجلي؟

- هكذا تجد فيه رجلاك مجالاً واسعًا لتكبرا فيه.

- إنه قديم.. مثقوب.. هل أستره من الأسفل ويستر رجلي من الأعلى؟ أتريدين لي أن يحتك أخمص قدمي مباشرة بالأرض؟ وقبل كل هذا أنا في حاجة إلى لباس يقيني شر البرد.

- لن يفرح به جلدك، ألا ترى أنك من حين لآخر تعيره لباسك الذي ترتديه أيام الآحاد

- أخوك.. أخوك.. أخوك.. أأأف... اللباس أخوك.. الحذاء أخوك.. الطعام أخوك.. أأنا وأخواتي البنات خدم؟

تنهال عليه بما حوت يدها، ينطلق كالسهم، تتبعه إلى الخارج، ترميه بحجر أو اثنين وتقفل راجعة وهي تصرخ غير آبهة:

- يا ابن"اليهودي" تأكلون أفضل من كل الناس وتلبسون أحسن من كل الناس ومع ذلك لا تحمدون الله... الله يلعنها سلعة.. وتختم الفصل بأخات وأعات وتفلات. والأدهى من هذا كله هو نتائج التقرير اليومي الذي يرفع في المساء إلى صاحب المهابة: المتحكم في الأنفاس "أس قطع الحس" بعد يوم حافل بـ"الزلط".

- ممثل المدعيين، هل من تدخل؟

- سيدي الرئيس، سيدي ممثل الحق العام، السادة المستشارون، اسمحوا لي أن أقول: إننا أمام قضية جد عادية، إلا أن أطرافها متشعبة، يفوق عددهم عدد المتقاضين الماثلين أمامكم، وعليه أرى أن السيد "جهل" والسيدة "فاقة" وآخرين، لهم يد من قريب في القضية، ولكي تكون المحاكمة عادلة أقترح الإنصات لهم.

- ممثل المدعى عليه.

- سيدي الرئيس، سيدي ممثل الحق العام، أيها السادة، إن موكلي لم يحتل هذا الموقع من علاقة الأخوين من تلقاء نفسه، ولم يكن يرغب يومًا في أن يكون كذلك، يعلم الله أنه كلما أمر، أو تلقى تعليمات تمزق ألمًا. وأجده هو أيضًا ضحية كالمدعيين الماثلين أمام محكمتكم.. وبناء عليه، أجدني أضم صوتي إلى صوت زميلي، فالقضية يتورط فيها أطراف كُثر.

في هذه الأثناء أسلم الساعي ورقة مطوية لرئيس الجلسة، ما كاد يفتحها حتى صاح :

- أدخلهما فورا

تكرر ما حدث لما نودي على المدعى عليه... استطاع الرئيس أن يحتوي الوضع في لمح البصر.

- أنا جهل

- أنا فاقة

- ماذا تعرفان عن عداء؟

- ابننا المطيع تربى في حضننا، يحيى وفق النهج الذي رسمناه له ووفق ما تقتضيه الطبيعة من استجابة لمبدأ حفظ التوازن في الكون.

- أسألك يا سيدة "فاقة"، إذا بالإمكان أن تدلي بمعلومات تساعدنا على معرفة الأسباب التي جعلت "عداء" يتصرف على هذا النحو.

- أنت تدين سلوكيات أعقل أبنائي وأكثرهم اتزانًا، وماذا لو كان الأمر يتعلق بـ"إجرام" أو توأمه "جريمة"؟...

- أسألك لآخر مرة: لماذا يعتدي أبناؤك؛ أو على الأقل "عداء" على الناس ويهدد طمأنينتهم؟

- أعتقد أن أبنائي كلهم وبدون استثناء لا يمارسون إلا حقهم في الحياة. وحسب أعرافنا فنحن لا نمارس إلا حريتنا، لنا حقنا في التحرك والتنقل والسكن والإنجاب... فما ذنبنا إذا كانت نظم حياتنا تختلف عن نظم حياتكم؟

- سيدة "فاقة" ألا يمكن - في نظام حياتكم - أن تربوا أبناءكم على القيم السامية ؟

- هذا ما نشأوا عليه، إلا أني أراك لا تدرك نسبية القيم فما هو نبل عندك ليس نبلاً عند غيرك، فنحن نشقى، نتعاون، نضحي...

- ولما لا تضحون ليعيش بنو الإنسان في سكينة ؟

- سيدي هل سمعت - في نظامكم - بما يسمى بالهوية ؟ فنحن نموت فداء لهويتنا، لبقائنا لا لتبخرنا...

التفت الرئيس متثاقلا إلى يمينه ثم إلى يساره، وقسمات وجهه، وحركات رأسه وبهلوانيات قلمه بقوة أنامله عجز مدغم في ارتباك شديد.
استدعى الرئيس قوى الأمن للقبض على فاقه وزوجها لاستئصال العلة، لكن هيهات... لا أثر..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. عبد ربه، عبد ربه أفق.. أفق.. خذ اشرب.. ما بك.. استعذ بالله.. هل هددك أخوك من جديد؟ هل اعترض سبيلك؟ هل اعتدى عليك؟

• • • •

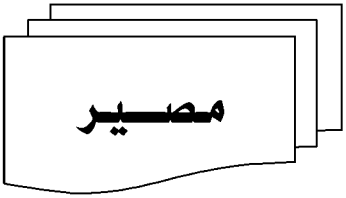

عطلة آخر الأسبوع، الجو ربيعي، لبست الطبيعة حلة مزركشة، مزهوة بأمير الفصول وعزيزها ترفل في زي طاووس. خرج الناس إلى ضاحية المدينة، جلسوا جماعات في حلقات، أغلبهم شباب مختلط فتيان وفتيات، ينعمون بطعام وافر، وشراب سائل وغازات، وموسيقى وآلات.

دنا رجل في العقد الخامس من عمره من إحدى الجماعات، يرتدي زيًّا أفغانيًا، ينتعل حذاء يكبر رجليه بمقاسات، وله لحية كالمخلاة. ما إن وقف وأخذ يتهيأ للكلام، ما كاد ينبس حتى مدَّ أحدهم يده:

- أمسك يا عم، والله إنك لماسك.

حاصره بالقسم

- من غير اللائق أن أجعلك تصوم ثلاثة أيام

وهو يحاول استجماع قواه

- أنا لست لا أريد...

مده آخر بورقة نقدية:

- خذ يا عم أنت في حاجة إلى مال ونحن لدينا ما يزيد عن حاجتنا.

تدخل ثالث:

- اقبل الهدية ولا تردها، وحبذا لو شرفتنا وشاركتنا جلستنا.

تشاغلت عنه الجماعة، همس أحدهم لآخر، وهمس ثالث في أذن فتاة، واستمرت سلسلة الهمسات، ولاح على محيا الرجل ارتباك، فأدركت الجماعة أن الرجل أجوف لا زاد لديه وجعبته أفرغ من فؤاد أم موسى:

- حدثنا أيها الشيخ، ماذا تحمل لنا؟

- في الحقيقة لست إلا...

لم يترك له أحدهم فرصة الكلام:

- خذ شاركنا الطعام

وبطنه يهمس ليده، ينظر من حوله وكأنه ينتظر تأكيدًا من أحدهم.

- كل يا عمي" متحشمش والدار دارك".

ما كاد يرتاح للأكل ويستطيب الطعام حتى ألقمه احدهم لقمة "مبرشمة".

عن قصد تشاغلت عنه الجماعة يمرحون، يشربون، يتبارون في رسم دوائر بدخان السجائر في الفضاء ويتابعون تلاشيها، وتارة تنقبض أساريره وتارة تعلو محياه ابتسامة شاحبة تعبر قسمات وجهه عن دواخله... أخذ المخاض ينتابه ودرجة الحرارة ترتفع في جسمه حتى نسي الخطاب الذي جاء يلقيه.

علا صخب الموسيقى، وقامت فتاة ترقص على إيقاع محلي، وتحلق الناس يصفقون ويصيحون، والشيخ يتابع حركات جسمها وقد جردتها عيناه من لباسها ليسهل التهامها.. دون أن يلتفت أمسك من يد أحدهم كأسًا

- اشرب بسرعة !

صوت أنثوي رقيق جعله يصبه دفعة واحدة مباشرة نحو المعدة ليطفئ النار بالجمار. انسابت الحرارة تغزو جسمه إلى أن بلغت رأسه فأصبح فردًا كامل العضوية يتصرف بلا حرج..

نادته فتاة:

- تعالى بجانبي، ألق نظرة على هذه الصورة المتحركة.

- هذه صورتي !!! كيف حصلتِ عليها؟

- هذه البداية فقط يا وقور !

جاء أحدهم بمقص ورفعه إلى الأعلى ليراه الجميع والصورة تتحرك أمام أعين الرجل في بث مباشر. أمسك صاحب المقص بطرف اللحية جزه والصورة تتحرك.

- يا عم نريد حقولك !

- نرغب في آبارك !

- نزرع ابنًا لنا في جسمك !

- لكم كل ما تريدون وزيادة، فقط احفظوا الصورة رجـاء.

- إنا لها لحافظون، سنحتاج إليها دائمًا.

- نريد مفاتيح بيتك.

- بعد أن أصنع منها نسخة.

- لن نرضى إلا بالأصلية !!!.

• • • •

نعم للرشوة

من أمام عتبة البيت سارا في اتجاهين مختلفين، انصرفت الزوجة إلى السوق لشراء بعض متطلبات البيت من خضر وفواكه، واختلف الزوج في زيه الرياضي إلى المضمار الذي اعتاد الركض فيه ضاحية المدينة.

على مسافة غير بعيدة، على قارعة الطريق تقف سيارة بيضاء بشريطين؛ أحدهما أحمر والآخر أخضر، تحمل لوحة ترقيم، اسم البلاد مكتوب بالأحمر وإلى جانبها "موتوسيكل" بنفس الألوان.. وفي الجانب المقابل تقف شاحنتان لنقل رمال البناء، يطل السائقان كل منهما في حديث مع أحد رجال الشرطة، أما الشرطي الثالث فراكضًا دخل إلى وسط الطريق يشير إلى سيارة قادمة بالتزام اليمين والوقوف، سيارة من نوع مرسيدس، قديمة الطراز توقفت في مسلكها وسط الطريق دون أن يشتعل الضوء الأحمر الخلفي، امتدت يدان: من داخل السيارة نحو الخارج ومن الخارج نحو الداخل، ادخل الشرطي يمينه في جيبه وانطلقت السيارة مخلفة آثار إطاراتها على الطريق، ولم يكن لأوراق السيارة ظهور في المشهد، بينما الشاحنتان لا تزالان رابضتين.

ما كاد صاحبنا يتجاوز المسرح حتى غفا تحمله خطاه بنفس الإيقاع المعهود الذي يفرضه سنه. ها هو يجلس في ساحة عمومية خضراء مقابل شاشة عملاقة وسط جمع غفير ينصت بإمعان لخطاب يلقيه الحاكم:

(السلام على من هو أهل للسلام وبعد، اليوم وفي إطار التنمية، وبعد دراسات قامت بها لجن مختلفة تتكون من خيرة أبناء هذا البلد الأمين، وبعد أن تفشت عدوى أقضت مضجع العباد والبلاد، اتخذنا قرارًا وكل من سولت له نفسه أن يبدي ولو ملاحظة بسيطة، يجرد من هويته. وينص القرار على: كل مواطن ذي منصب في نسيج الوظيفة سواء بدون سلاح أو بسلاح، باردًا كان أم ساخنًا أم دافئًا، أينما كان موقعه وكيفما كان؛ عليه أن يكتب؛ بل ينقش؛ بل ينحت " لا للرشوة" على زيه الرسمي في مواضع معلومة وبألوان موحدة بحيث تقرأ على بعد مسافة معينة وتعكسها الأشعة ليلاً، ولا تقلقوا لأن الإدارة وفرت أزياء لمن لم يكن لهم في السابق والسلام).

لا يزال صاحبنا يسبح في سباته يتصبب عرقًا وهو في طريق العودة ورجال الشرطة لم يبرحوا مكانهم والعبارة موضوع الخطاب تلوح للناظر من بعيد على الصدرية، على الظهر، على القبعة وعلى فردي الحذاء. أوقف أحدهم سيارة، ولما كان صاحبنا يمر بالقرب سمع ما دار بينهما:

- امحها أيها "الشاف".
- ألا ترى أنها مكتوبة على كل ما أحمله ؟
- لدي كل ما يستدعيه المحو، أنت فقط، مد يدك، وإذا كنت لا تستطيع بسط يدك، أعطني الضوء الأخضر ولو بإشارة، وقبل ارتداد الطرف تكون قد امحت، لا تحرم الأطفال بمثل هذه "الهبرة".

أيقظه رنين نقاله، وما أحس بأدنى تعب ولا بطول المسافة التي قطعها؛ إنها زوجته.

- آلو كيف حالك، هل انتهيت من التسوق؟
- ماذا؟ عليك أن تسأل هل تسوقت
- هل من أمر حال دونك والتسوق؟
- ما حدث هو أن المبلغ الذي تكرمت به علي لم يعد يؤمن ولو الربع مما ألفته.
- طيب انتظري حتى أعود ونعالج الأمر.
- أأنتظر، واضعة خدي بين كفي، أم أطهو سلامة جسمك؟ تعال حالاً لتلبس طاقمك وتخرج لتعود بما يغطي احتياجاتنا...

وبعد بضعة أشهر أصدر الحاكم قرارًا يقضي بأن يمشي كل مواطن راشد سواء لأداء واجبه اليومي أو لقضاء مآربه الخاصة وفي أي مكان كان: على الطريق أو داخل الإدارات والمؤسسات بيديه مغلولتين خلف ظهره.

وتعطلت حياة المواطنين !!.

بعد شحن البضاعة، وإحكام ربطها، تلافيًا لتداعيها أو سقوطها، نتيجة لحركة العربة، تربع الحمال على المصطبة وهو يردد: باسم الله.. باسم الله.. توكلنا على الله، قبل أن يصيح بالحصان : أي ي ي. وما كادت عجلات العربة تتم دورة حتى تلقى إشارة تدعوه لالتزام اليمين والتوقف... قبل أوراق العربة، طُلبت منه الفاتورة التي بمقتضاها تم شراء البضاعة المشحونة..

- ماذا تريدون؟

- اسمع ! نحن لجنة من إدارة مكافحة التهريب !

- وما علاقتي أنا بالتهريب حتى يتم إيقافي وبهذه الطريقة ؟

- أنت تنقل بضاعة، ونحن نريد أن نرى ما إذا كانت مهربة، وهذا كل ما في الأمر.

- أنا حمال، مجرد حمال... كيف لي أن أهرب جهاز تبريد وقد اشتراه صاحبه، ودفع ثمنه نقدًا، من دكان معلوم، صاحبه من أهل الخير والصلاح في هذه المدينة، وعنوان المشتري إلى حيث سأحمل الجهاز معي. ألا يكفيكم كل هذا؟ إي ي ي.

أمسك أحدهم زمام الحصان ليحول دون انطلاقه، وقد بدا عليه القلق.

- توقف، إذا حاولت الإقلاع مرة ثانية ودون إذن سوف تندم !

- ماذا تريدون مني؟ ليس معي أية ورقة.. لكن لم لا نراجع البائع ؟ هو من يعطيكم ما تطلبون...

- لا تكثر من الكلام، فأنت تنقل بضاعة مهربة، ولذا سترافقنا إلى مكتب الإدارة حيث سيُحرر لك محضر في الموضوع.

أحس أن الوطأة تشتد، وأن الأمر ينطوي على الجدية، فحاول أن يخفف من حدة مقاومته..

- وكيف لي أن أعلم أن البضاعة مهربة، وحتى مع افتراض العكس فكل السوق يعيش على هذه الحال، وكيف يمكنني أن أحصل على قوت يومي إن كنت اشترط أن تكون البضاعة محلية وكل ما في السوق يمكن أن يكون مهربًا، وكيف يمكنني أن أمتنع عن نقل هذه البضاعة أو تلك والزبون يتلقفه الحمالون وهو لا زال لم ينو بعد الشراء.

- أظنك تعلم أن القانون لا يحمي المتغافلين.

دون أن يرفع صوته..

- أنت أكبر المغفلين.

- لحسن حظك لم أتبين ما قلت، وإلا كنت أتهمتك بإهانة موظف حكومي يؤدي مهمته.

ـ لمَ "تحقر" أنت حمالاً ضعيفًا يقوم بمهمته الشريفة وخدمته النبيلة، لينحت قوت يومه، بعرق جبينه...

التزم الصمت، وكأن فرط حرارة الضحى من جهة، وفرط الكلام من أخرى أرهقاه، فلم تعد قوته تسمح بغير التفكير بصمت وكأني أقرأ ما يجول بداخله: إذا كان الجهاز مهربًا، فلم لا يحجزون على البضائع الكامنة داخل الدكاكين وفي المستودعات؟ ولم يحاربون التهريب على شريط الحدود؟ لم لا يجعل من المهرب الموقوف عبرة للآخرين؟ لم يقبض عليه ويطلق سراحه فيعود على التو إلى ممارسة نشاطه المحظور؟ أم أن التهريب بالنسبة لهم يبدأ عند خروج البضاعة من باب الدكان؟ بل بعد شحن البضاعة على ظهر العربات؟

حاول بكل ما أوتي من قوة أن يتخلص من هذا الكابوس الرابض على أنفاسه مع بداية هذه الصبيحة إلى أن استنفذ كل ما بجعبته من وسائل، وأخذ الخوف من الوقوع في كارثة يتسرب إليه.. ترى ما الذي سيحل به عند بلوغه مكتب محاربة التهريب؟ سوف تحجز عربته ـ وسيلته للعيش ـ بالتأكيد سيحاكم، سيحكم عليه بغرامة لن يستطيع دفعها ولا تسديدها، ويزج به في السجن، وهكذا ستغرق عائلته في مستنقع الفقر والبؤس. لم ييأس من محاولاته، وكلها كانت تخر أمام إصرارهم.

كانت اللجنة مؤلفة من ثلاثة عناصر ركب اثنان سيارة حكومية، في حين اقتعد الثالث مكانًا بجانب الحمَّال على العربة.

على طول المسافة، لم يهدأ له بال، ولا استطاع التركيز، كل ما ظل يقوى عليه هو تصعيد الزفرات المحرقة وإصدار آهات تنفيسا من الصخرة الرابضة على الكاهل. أنتابه ما يشبه الشرود، والتهريب لا يفارقه، وخاصة هذه الطريقة المعتمدة في محاربته... لابد أن من ينظر من المسؤولين جالس في مكتبه يعاني من الفراغ والروتين، كل انشغاله منصب على حل شبكات الكلمات بشتى نعوتها وحتى المعنكبة منها، ولذلك ارتأى حل شبكة التهريب بطريقة معكوسة، كأن يجهز على الحمالين أولا ويضرب بيد من حديد، وحين لا يبقى في السوق حمال، تبقى البضائع في الدكاكين، وأمام الكساد والبوار يُغلق الدكاكين وهكذا يجد المهربون أنفسهم مجبرين على تجميد نشاطهم قبل الموت.

لكن لما كانت المدينة حدودية، ولا أثر فيها لأي نشاط اقتصادي يمكنه سد حاجة المواطن إلى الشغل، والمسؤول يدرك أكثر من غيره أن لا مفر من التهريب، كان عليه إتقان لعبة التمويه، يغالط رؤساءه من جهة مادام هو ذاته أحد خيوط الشبكة العنكبوتية، إذ يكمن دوره في تأمين الطريق حتى تصل البضائع سالمة إلى المستودعات، ورفع محاضر إلى الجهات العليا وتقارير بأسماء الحمالين ومن في مثل أحوالهم، والغريب هو

الفرحة التي تنتابه لما يصرف له تعويض عن هذا النوع من العمل ويموه على المهربين من جهة أخرى، لما يضيق عنهم الخناق، يدعي أن الجهات العليا اشتمت رائحة نتنة، فلم يعد يسيطر على الوضع، لان بعض المهربين - ممن يعرفهم ولا يرغب الآن في الكشف عن أسمائهم - اشتكوه لدى الجهات العليا. وأمام ما يحسبه الأباطرة من خسارة نتيجة تراجع نشاطهم، تنهال عليه صلاتهم فيعدهم أنه سيبذل قصارى جهده. وما الحمال إلا مشهد من فصول التمويه.

رفع رأسه ليقع بصره فجأة على السيارة الحكومية، يدفعها الرجلان يمضيان بها في اتجاه رجل على قارعة الطريق بيده قمع ركب من قنينة بلاستيكية من قنينات المرطبات، من الحجم الذي يسع لترين، وخرطوم بلاستيكي أيضًا يناهز طوله نصف المتر. سحب الحمال بيده اليمنى حبل الفرملة سحبًا خفيفًا اضطر الحصان على المشي، حتى يتسنى له رؤية المشهد. اقترب الرجل بيديه قنينتان تسع كل منهما خمس لترات من البنزين، صب إحداهما في خزان السيارة، وأما الثانية فشحنت. أقلعت السيارة والشاب ينظر إلى لوحة السيارة...

وهنا سمع الرجل الحمال وقد طار صوابه:

- ما هذا يا إلاهي ؟ أهذه لجنة محاربة التهريب ؟ لا بد أني أحلم..

صفع خده الأيمن.. وثنى بالكف الأيسر.. وما زال لم يدرك أهو في حلم أم في حقيقة ؟

• • • •

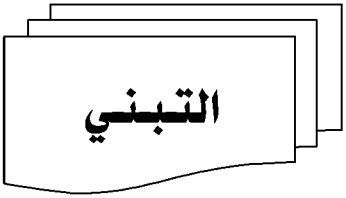

شحن السيد مختار جسمه الثخين بصعوبة كبيرة داخل سيارة سوداء رباعية الدفع، أغلق السائق الباب الخلفي فركض ليقتعد مكانه خلف عجلة القيادة. انطلقت السيارة بسرعة فائقة ودون أي توقف يذكر... ركن السائق السيارة في مرآب واسع تحت عمارة زجاجية شاهقة. بنفس صعوبة الشحن أفرغت كتلة لحمية تبدو وكأن لا تحملها عظام. يمشي السيد مختار، يحتك فخذاه ببعضهما احتكاكًا جرد السروال المستورد ثوبه، والمخيط من طرف خياط الوجهاء، من كل أناقة، بل سحب عليه منظرًا تشمئز منه الأنظار...

نشر جسمه عبر كرسي وثير فُصل على مقاسه، هو للنوم أكثر مما هو للجلوس... افتتح الاجتماع ثم غفا. لم تمهله الذبابة، أفرغت شحنتها كاملة ليدخل في شبه غيبوبة. لم يستيقظ إلا على ضجيج حركة الكراسي، وقع محضر الاجتماع وغادر القاعة في اتجاه مكتبه الخاص...

يحييه حاجبه فيسبقه إلى الداخل، يساعده على الجلوس ويهمس في أذنه :

- لي وحدي أم للقسمة؟

أجابه في همس تام:

- أدخلت الحلوى وأي حلوى !

مختار يلتهم ويزدرد ثم يعود للنوم... وبطنه تنتفخ يومًا بعد يوم، ولونه يتبدل يوما بعد يوم، حسب ألوان الحلوى ووجهه يتقلص يومًا بعد يوم حتى غدا أنزر من لا شيء، على من شاء أن يراه أن يقتني أحدث ما جد ودق في عالم المجاهر.

تغادر السيدة "سَلطه" كل يوم أحد مقرات إقاماتها بعد قيام متأخر، والنوم يغالب جفونها لا تتخلص منه دون حمام بارد، ربما هذا هو السبب في زكامها الدائم حتى يظن الناس أنها مدمنة، ولعل مثل هذه الأمور هي ما يجعلها تولي اهتمامًا كبيرًا لشكلها قبل خروجها. وتستعد ليومها، تحضر كلماتها تفكر في من تلقي عليهم التحية، وفي من يحظى بتحيتها مرفقة بابتسامة، وفي من تصرخ في وجوههم، وفي من تقتحم عليه المكتب قد تضبط ما يعينها على كسر كبريائه. وفي طريقها تجري بعض المكالمات، يطلعها ذيولها في المكتب على سير الأمور، وعلى ضوء ذلك تقرر نشاط يومها الذي قد يكون داخل المكتب - وهذا نادرًا ما يحدث - فمبلغ همها هو كيف وأين وصحبة من تقضي ليلها لتسخر يومها في اجتباء ما تتطلبه ليلتها من نفقات.

في خضم انشغالات الأبوين بين الأسفار والتنقلات والسهرات تبقى رعاية "شعيب" وأخته "رعية" موكولة لكل من في البيت من خدم وحراس وسائقين ومشرفين على تربيتهما، ولما لاحظ هؤلاء تصرفات وسلوك الأبوين تجاه نفسيهما من جهة، وتجاه ولديهما من أخرى؛ أخذ الإهمال يتسرب إلى أن أصبح سائدًا، فاختلطت المسؤوليات، وكثرت الغيابات، يغطي هذا غياب أولئك. والحال ذي أصبحت معاناة الطفلين تزداد: فلا مواعيد الطعام تحترم ولا يهتم بكيفها ولا بكمها، ولا مواعيد اللعب ولا الفسحة ولا حصص أبجديات التعلم يُحفل بها. يروعك منظر الطفلين وهما يُحشران يوميًا في سيارة سوداء تنطلق بهما في اتجاه "لا كريش" ومن هناك إلى البيت. أما في عطلة نهاية الأسبوع فتشرف عليهما إحدى الخادمات. في الصباح تنطلق بهما في اتجاه وسط المدينة وفي الباب الشمالي تجد في انتظارها امرأة تلبس جلبابًا رثًا وعلى وجهها لثام متسخ يبدو من خلفه وجه صبوح يتناسق مع نعومة يديها العاريتين، عليها آثار نعمة...

- لمَ لم تلبسيه الزي قبل أن تأتيني به؟

- لم أتمكن من فعل ذلك... لا تشغليني أكثر، هاتي ما عليك ! وليكن في علمك أن ما تدفعينه لم يعد كاف، وأنت تعلمين أني لست المستفيدة الوحيدة !

سلمتها المبلغ وانطلقت في اتجاه الباب الغربي حيث تترقب إحداهن وصولها وهي قابعة في إحدى زوايا الباب، سلمت واستلمت وهي تقول: "رجاء كما اتفقنا.. لا تشرعي في إلباسها حتى أغيب عن الأنظار".

بعد أن انتهت من مهمتها الصباحية تتفرغ لنفسها، تركب إلى جانب السائق شريكها في المهام والمتعة يقضيان أوقاتًا، يسرقان لحظات الانتشاء بعيدًا عن الأنظار، ينفقان من مكسبهما الصباحي على شبه ما ينفق عليه كل من "مختار" و"سلطة" مع فارق أن الأخيرين ينفقان على غير نفسيهما مجتمعتين.

مرت الأيام والأسابيع والشهور والسنوات، من حين لآخر كانت وظيفة الطفلين تتغير مع تغير السن، والبيت يزيد خرابًا، أما الوالدان فلا حياة لمن تنادي...

في المدرسة ربط الطفلان علاقات مع زملائهما يتحاورون يتبادلون الأفكار يتقاسمون همومهم. تعلم الطفلان الكثير وأخذا يعيان وضعهما ويحاولان الانتفاض. ولقد وجدا في أترابهما خير معين لهما حتى يسمعا صوتهما لوالديهما. مع اشتداد الضغط من طرف أولي أمرهما في البيت وفي جحيم غياب سُلطة الأبوين الذين لا يعلمان من أحوال الطفلين إلا ما يُرفع إلى مقامهما عن طريق تقارير، قد يطلعان عليها وقد لا يوليانها اهتمامًا وقد يبرر أحدهما لنفسه إهماله مدعيًا أن الآخر من يطلع عليها.

وفي هذه الأثناء كانت الاتصالات على قدم وساق عبر شبكة الإنترنت، أخذت الشعارات الرافضة للوضع والمحرضة لهما على الخروج من صمتهما تنثال عليهما، من الأصدقاء من أبدع في تصاميم اللافتات، ومنهم من أبدع في بلاغة العبارات ومنهم من ترجمها إلى مختلف اللغات. ملأ الطفلان جنبات البيت، شرقًا وغربًا بالملصقات واللافتات... في غياب الوالدين أخذ أولو الأمر من خدم وغيرهم يستخفون، يستصغرون، يحتقرون الأمر الذي لم يثن عزيمة الطفلين، فلجأ الزبانية إلى العنف بمختلف أشكاله بلغ إلى حد العنف الجسدي لتثبيط همة لا تقهر، فلم تجد أيادي العنف أمام عجزها عن إفشال المحاولات وإحباط الإرادة بدًا من رفع الأمر للوالدين وهم في ذلك يحاولون تلميع صورتهم وتلطيخ صورة الطفلين.

قام الوالدان كل واحد منهما على حدة بمحاولات، يبدو أن كلاهما استصغر الأمر واعتبره من باب محاولة إثارة انتباه الوالدين وهذا أمر طبيعي عند الصغار فالأمر لا يتعدى ذلك والعلاج لا يتطلب أكثر من التفاتة بسيطة فيرضى الولدان ويعودان لحياتهما من جديد. أما دار لقمان فتظل على حالها.

اعتبر الطفلان وبإيعاز من أصدقائهما ما أتاه والداهما تجاههما إهانة لعاطفة البنوة والأبوة والأمومة معًا ولذا قررا وبدون تراجع التصعيد، فلم يعودا يطالبان بحقهما في الرعاية الكاملة،

ولا بحقهما في العطف والحنان، ولا بحقهما في الحياة الكريمة. بل يصران على إسقاط حضانة هذين الأبوين فورًا وبدون قيد أو شرط، ويطالبان بأبوين مؤَهلين لتحمل مسؤوليات التبني.

• • • •

تمثال شهريار

تردد كثيرًا قبل أن يطلب الرقم...

- "يا رب هل تتحقق هذه المكالمة؟"

بعد محاولات عدة رُفعت السماعة، لم يقدم نفسه وبادر قائلاً:

- تقتضي اللباقة أن يكشف عن هويته كل من يطلب شخصًا على الهاتف، ولكن لما كنتُ سحابة عابرة وشخصًا عرضًا في مشهد من حياة شخص اقتحمه عليه دون أي استئذان، اعتقادًا مني أني أقوم بالصواب تحت إملاء صوت الضمير، سمحت لنفسي أن ألعب دور المنار، أسلط أضواء، وأزيل الغشاوة على أعين تعمى عن جوانب مختلفة من علاقة يكتنفها الكثير من التوتر، ينتج عليه الكثير من وخيم العواقب فلا عجب إذا لاحظت أن رقم هاتفي مقنَّع، اعتبرني مجرد فاعل خير.

- لم تحجبْ هويتك فحسب، بل لم تكلف نفسك حتى عناء إلقاء التحية. هل قست وزنك أيها المتطفل؟.. من أين وكيف ومتى حصلت على هذا الرقم؟

- معذرة إذا كنت قد أسأت التصرف وخانتني لباقتي فصاحب الحاجة أعمى كما يشاع.

- اسمع يا هذا، إن حسن استهلالك لا يطربني إذا كنت لبقًا كما ادعيت فبرهن على ذلك.

- لم أقتحم المشهد لأوقعك في حبائلي بل شفقة مني على حب حول حياة العديد من الأشخاص إلى جحيم.

- هذا مسعى نبيل منك يا روح العشق وصاحب الأخلاق التي لا تسمح بالمكالمة دون الإفصاح عن الهوية !!! لا تنس أن مروءتك تقتضي منك إعلامي من أين حصلت على رقم هاتفي !

- من دليل.. من دليل؛ لا كالدلائل المعروفة عند مستعملي الهواتف، من كتاب لا كالكتب المرصوفة على الرفوف، كتاب مفتوح لا على صفحتين بل على كل ماضيه، كتاب عنوانه انكسار، محتواه عذاب ومعاناة وحسرة من جراء الصبابة والوجد، شريط كامل من صور متلاحقة، وجه تعلوه أزهار ذابلة وأرقام تومض كأنها مصابيح أشجار رأس السنة، لاحظت تردد ومضات أرقام بعينها، كما لاحظته غير مرة يرسم على الأرض أرقامًا، أحصيت عددها فكان مطابقًا لعدد أرقام تركيبة رقم هاتفي، وخاصة أن الأربعة الأولى كانت: (... 76 06) ومن يومها أخذت أقتحم عليه عزلته، أحاول استدراجه لمشاركتي أطراف الحديث، تهيأ لي أنه ينتظر مكالمة منذ أن ولج هذه المؤسسة وربما قبل ذلك. فأخذت أكلمه عن أهلي الذين لم يهاتفوني لما كنت يومًا في أمس الحاجة لمن يخفف من عنائي،

وهو لا ينبس لكن إصبعه يخط على الأرض رقمًا أو رقمين ثم يمحوه أو يمحوهما، وأنا أسرق النظر إلى الخطوط على الأرض قبل أن تتبخر مع جرة إصبع، ومع مرور الأيام وقليل من الاجتهاد ومع بعض الحظ حصلت على تركيبة، سألته عن الرقم دون جدوى، وكلما آنست فيه هدوء المزاج سألته محاولاً أن أعرف جانبًا من حياته، وتكررت المحاولات كونت من نتائجها فكرة عن مدى الألم الذي سببته له وكان حجر الزاوية بالنسبة لحياته... ولما رنَّ جرس هاتفك كان أملي أن يفوز سمعي بصوت حواء، ولما سمعت صوتك هزني شعور من حقق إنجازًا عظيمًا.

- عن أي كتاب تتحدث، وعن أي إنجاز ؟

- عمن كتب هذا الكلام

- أي كلام يا هذا ؟

- أمهليني لحظة، أفتح ورقة كان قد وضعها في يدي يوم اشتد عليه المرض ! سأقرأ ولدي شك، أهو كلام يهمك أو يهم غيرك:

"كل رقم يدغدغ
أجراس هاتفي له يبتسم
باختلاف الرنات
والومضات

والرقصات،
على الشاشة ترتسم
معلنة طلائع الداعي،
سوى تركيبة من نارْ
تقيم بسواد القلب
أظل أرقب لها إخطارْ:
ومضة أو
رنة قد تليها
صورة ملاك خاس عن عهد
لكن.. هيهات
أطفأت القناديل
أسكتت العنادل
أفحمت البلابل
فلا نشيد ولا تغريد
غير موت رعديد

كل ومضة لغيرها
كل رنة لسواها
كل صورة عداها
رفع صخر ودحرجه

للحداد حكايهْ:

عقب الضربة سعي

نحو شباك الورشهْ

فإطلالهْ

فعودهْ

فضربهْ

فإطلالهْ

والحلقهْ

مفرغهْ

وقضى الحداد وما

كان للزاجل أوبهْ "

- أعد.. أعد هذا النظم، هل الكتاب الذي ذكرته موجود إلى جانبك ؟ رجاء اسمع هذا واسأله

قل لمن رددتْ:كفاني افتخارا أنيَ منْ منه خلقتُ شاعرا

لقد نحتت أروع تمثال ساد جردت شهريار من مشاعر

- أجل لكنه لا يكلم أحدا، يعيش عالمه الخاص به، يعيش على الماضي فقط، لا يعلم شيئًا عن الحاضر. أيتها المحترمة كتابك أنتِ. أصبح... ألم تتابعي أخباره عبر الصحف والجرائد؟ ألستِ

أنت من أحبها بكل ما يملك من جوارح ؟ ألستِ أنتِ من أعادته لشبابه؟ ألستِ من عاهدته على الوفاء؟ ألم ترددي على مسامعه: لا يمكنني أن أتنفس إلا بجانبك ؟

- قلتُ أكثر من ذلك قلت متوسلة: عدني يا حبيبي ألا تهجرني مهما كان.. : كان يملأ كل حياتي، إذا حدث أن غاب عني لحظة، أجن...

- وهل وعدك؟ وهل كان وفيًا؟

- رجاء اسحب السكين من جراحي !! ولكن... هل تعرف مكان تواجده؟ لقد عهد إلي بقلبه، ائتمنني عليه. حزته بلوراً صافيًا كلما نظرت إليه انعكست عليه صفحة وجهي، بل دون أن أنظر إليه يعكس صورتي وحدها ولا شيء غيرها، مشرقة كنور صباح يوم العيد. لكنني أسقطته على البلاط، أنظر دون اندهاش إلى شظاياه تتناثر في كل اتجاه. كسرت القلب وألقيت الأشلاء شرقًا وغربًا حتى استحال جمعها. فعاد حاله وقد أدمن على هواي أصعب من حال من تعوزه الجرعة يتلوى كدودة، يرنو إلى جرعة اللقاء، جرعة الابتسامة، جرعة الهمس... كسرت قلبًا لا كالقلوب فراح عبثًا يبحث عن أجزائه، يسأل الشاهد على انتعاشته لما كاد يقضي، اليوم الذي كتب بأنبل مداد العاطفة، يشكوه حاله لعله بحركة عصا سحرية، في ردة الطرف يُجمع أجزاءه، لكنه لا يطال غير خفي حنين، ويعود كسيرًا لا سلاح له سوى دمع لا طائل وراءه غير كونه عزاء العين للقلب الكليم.

يشكو ضياعه للبحر، يبحث عن أشلائه بين عباب الموج المتلاطم فلا يظفر إلا بنفس مضطربة أمواجها أعتى من أمواج البحر، يبحث عنها على لمى شفتي وهما تنزلقان على بعضهما معبرة عن شوق دفين، يبحث عنها في ذبذبات أنفاسي العبقة ذات الشذى الذي لا تلوثه رائح مساحيق ولا عقاقير، يبحث عنها في كل مكان ارتدناه معا... تجيبه كلها نفس الجواب : لا أصدق أن ذاك الملاك حطم قلبك، لقد عهدته وديعًا، هادئًا، غاية في الرقة وكأنه نسيم الصباح، يهيم بك حبًا لم تحلُ له الحياة إلا في حضنك الدافئ، يغار عليك من النسمات الرقاق. سمعته غير ما مرة يقسم أن لن يهوى سواك، أن يفنى في حبك، سمعته يدعوك أن تبقى على العهد ولا تهجره...

رجاء دلني على مكانه، لا أرجو منه إلا أن يسامحني، لقد أذنبت كثيرًا في حقه، في الوقت الذي أعطاني كل شيء، وعلمني كيف أحب الحياة... على الأقل قل لي ماذا فعلت به الحياة؟

- هذه حكاية تجهلينها وأنتِ عامل أساسي فيها. فمنذ أن قاطعته دون سبب منه ودون تبرير منك، ولم يعرف إليك سبيلاً، في الوقت الذي بعته بثمن زهيد، لم يقو على تحمل قوة الصدمة، واضطربت حياته... كرد فعل فوري أملته ظروفه النفسية، عاقر الخمرة، وضعت الظروف في طريقه إحداهن تقربت منه، رغم تواضع حاله استطاع بفضل سحره أن يسيطر على عاطفتها،

ومع مرور الأيام أصبحت ظله وهو واع تمام الوعي أن عدم الاكتراث لها هو ما يدنيها منه أكثر فأكثر، هامت به إلى أقصى درجات ضعفها، تلبي رغباته، تشبع نزواته، تنفق عليه من راتبها ومن مدخراتها بدون حساب لا تطلب إلا إرضاءه، وهي تشحذ رضاه. تسهر على طعامه تنتقي ملابسه بعناية فائقة خشية أن يرفضها وتصاب بخيبة أمل تسهر على راحته كما تسهر الأم على راحة وليدها. وبدون سبب وعلى إثر اختلاف في الرأي بسيط، ارتكب في حقها جريمة لا مبرر لها، بواسطة شفرة حلاقة شوه عضوها التناسلي، وبذلك أفقدها حقًا حيويًا في الحياة.

ولا أدري كيف فاتتك القصة التي عرفها مع إحدى النساء أغرقها في بحر حبه، قاسمته حياته كما كان يرغب، عاشاها كسائحين ينتقلان من مكان إلى آخر، من بلد إلى آخر ينفقان بسخاء.. فاجأته يومًا تخبره حملها، نزل عليه الخبر نزول الصاعقة ومع ذلك حمل نفسه على الهدوء، ابتسم ابتسامة مصطنعة، وفي اليوم الموالي عُثر على جثتها ملقاة في مكان مهجور ضاحية المدينة. ولم تكن هذه آخر جرائمه... بعد جهد في البحث، ألقي عليه القبض وحوكم، وبعد فترة وجيزة من العقوبة قضاها في السجن تبين أنه مصاب لا يسيطر على أفعاله، ونقل إلى مستشفى الأمراض العقلية.

انقطع الخط، وهي تعيد ألو.. ألو.. ألو... تحاول استدراك أمرًا فاتها، لكن لا حياة لمن تنادي..

• • • •

الحمار الحزين

أوقف "محند 75" - هكذا سمعتهم ينادونه، وبالفرنسية - سيارته أمام متجر لمواد البناء. إلى محاذاة رصيف من الآجر، يقف حمار، يبدو هزيلاً، ليس من فرط العمل، مربوط إلى عربة خشبية بعجلتين "كارو". ما كادت قدما الرجل تطأ الأرض حتى، مزق طبلة أذنيه نهيق حاد للحمار، سرعان ما أخذ الانضغاط (خطأ سوار الكباس) يندفع نحو الخلف والنتيجة انخفاض قوة النهيق وارتفاع إيقاع الضرط الذي أرقص الذيل؛ طريقته لمناداة صاحبه لما يرى زبونًا بالجوار.

سمع الحمال الذي كان في شبه المقهى المقابل للمتجر، يلغو صحبة جماعة تحلقت حول إبريق شاي، والذباب يغرق في عمق الكيسان منذ أن سولت له نفسه التماس رشفة. غمغم الرجل، ربما قرأ تعويذة أو قرأهما معًا. ودخل الدكان.

هرول الحمال في اتجاه الدكان، تابع المشهد بين التاجر والزبون، وفي حسابه الخاص، سيحظى بالتوصيلة، ويبدو الرجل محترمًا قد يغدق عليه وينال أكثر من المستحق.

خرج الرجل من الدكان وقد دفع ثمن البضاعة، وأمسك بين يديه فاتورة ثناها بعناية، وبنفس العناية وضعها في محفظة الجيب، وأعاد المحفظة إلى الجيب على الصدر، وأحكم إقفال الزر.

دون إشارة تذكر، أو لفت الانتباه، أخذ الحمال يشحن الآجر، يرصفه عشرة عشرة على عربته. اختلف الرجل ناحية السيارة، فتح صندوقها وأخرج قفازي العمل، رمقه الحمال، وأخذ يحادث نفسه: يا له من رجل لطيف، رق لحال يدي المشققتين من جراء هذا الآجر الحاد كالسكاكين... وفي نفس الوقت ارتأى ألا يضعهما على يديه لأن في ذلك إهانة لخشونة طالما تعهدها بالرعاية يفاخر بها كل من قلت أو ضعفت خشونته، وبعد هذا وذاك فحتى المرأة في محيطنا لم تعد تنعم بالنعومة وبعد كل هذا ليس له أمام الرجل أي مظهر من مظاهر القوة سوى تلك الخشونة، وإذا قبل باستعمال القفازين يكون قد ختم على ضعفه كاملاً وهذا ما لا يرضاه لنفسه.

لما كاد يشحن العربة عن آخرها ألتفت ناحية الرجل، ليرى ويسمع في نفس الوقت يديه تلبسان القفازين وضربت إحداهما بالأخرى، وقال: "على بركة الله" ، وشرع يحمل الآجر ويضعه في صندوق السيارة الذي ظل مفتوحًا.

وقف الحمال متسمرًا مشدوهًا أمام المشهد، و"محند75 "يعد حبات الآجر قبل أن يحملها بين يديه ولما يضعها في الصندوق

يعيد عدها من جديد، وإذا تبين له أنه قد شحن ضمن ما شحن آجورة مكسورة ولو كسرًا بسيطًا أعادها إلى مكانها، وشحن أخرى بدلاً منها. ملأ الصندوق حتى لم يعد الغطاء ينطبق عليه، أخذ القلم من جيبه، كتب عليه رقمًا ثم دخل به إلى المتجر وخرج بعد أن سلمه للتاجر. أوصل الشحنة ثم عاد. رآه الحمار، وطفق ينهق نهيقًا حزينًا. لم تملأ الشحنة المتبقية الصندوق غير أن الغطاء أبى أن ينطبق أو ينغلق بعد محاولات هادئة تلتها أخرى عنيفة بدون جدوى. غادرت السيارة، والعربة لا تزال محملة، لم يشأ الحمال إفراغها، ربما تعمد ذلك لكي لا يشعر "محند 75" من جهة و"أصحاب الحسنات" من جهة أخرى لأن في ذلك ضعف وهو لا يريد إلا أن يبدو قويًا، ولعل بقاء عربته على تلك الحال ما حرمه من رزق يومه، فكل من يرى العربة محملة يفهم أنها غير متاحة...

في المساء، مضى الحمال في اتجاه بيته يجر حماره. ولما اقترب من دكان بائع العلف، أخذ الحمار ينهق نهيقًا ضعيفًا، حزينًا. علم بائع العلف أن الحمار سيبيت الليلة بلا علف، وقام مسرعًا وأغلق الدكان على الأقل يربح توصيلة مجانية على متن العربة.

أخذ الرجلان يتذمران من الحياة عمومًا ومن الحرفة التي لم يبق فيها"ما يدر" وما أن بلغا دكان البقالة حتى أخذ الحمار

يـردد سـيمفونيته الحزينـة، فعلـم البقـال أن لا الحمـال ولا بـائع العلف سيقفان اليوم بدكانه قصد التبضع. أسرع في إقفال الدكان وقفز على العربة، ركب الخضار ثم الخباز.. والحمار لا يقوى على جر العربة. وما أن لاح له البيت من بعيد حتى بدأ ينهق نهيقًا حزينًا. فأدركت الزوجة أنها وأولادها سيبيتون اليوم أيضًا على الطوى، لا بأس لقد ألفوا الفقر ودأبوا على الجوع...

تكرر السيناريو حتى ألف الحمار اللحن الحزين وكاد ينسى النهيق القوي. وأصحاب السيارات، والطفطافات يشحنون أو يجرون البضائع والحمار ينهق نهيقًا حزينًا. أما من لا سيارات لهم فلا يستطيعون البناء. و أما البناء فيشحن كل ما يحتاج إليه من وسائل وأدوات على سطح سيارته، وكلما رآه الحمار نهق نهيقًا حزينًا. وإذا أصابها عطل تحول إلى ميكانيكي أو عجلاتي. والبقال تصله البضاعة على متن شاحنة الممول. لم يتوقف الأمر عند حدود الحمار بل تعداه ليمس كل المجتمع على الأقل الطبقة الدنيا؛ فلا البقال عاد يستطيع زيارة الجزار ولا هذا عاد يستطيع زيارة الخياط، وعجز الناس عن أداء فواتير الماء والكهرباء...

أما "محند 75" فلا زال وفيًا لنهجه "اخيط كساتو ويطيب عشاتو.... لا يحتاج لأحد". وفي أحد الأيام بعد أن شحن السيارة بالإسمنت حرن المحرك وأبى أن يدور، حاول معه حتى نفذت الطاقة المخزنة في البطارية. طلب من جماعة أن تساعده

بالدفع فأبت. طلب ميكانيكيًا يصلح عطب سيارته فوجد كل الورشات مقفلة. لم يبق أمامه غير الحمال، طلب منه أن يجر سيارته المحملة بالأسمنت. قبل الحمال بشرط أن يساعد الحمار عن طريق الدفع. لما بلغ الحمار المكان تعاون الرجلان على إفراغ الحمولة. انتبه الحمال إلى عدم وجود أي عامل، واليوم يوم عمل والوقت لا زال مبكرًا على انتهاء دوام العمال، فاهتدى بالاعتماد على المشيرات السابقة أن الرجل يبني عمارة بمفرده.

توقف الحمار أمام كومة الآجر ونهق نهيقًا قويًا مفعمًا بالفرحة، في المساء توقف أمام دكان العلف ونهق نهيقًا قويًا مفعمًا بالفرحة، وكذلك فعل أمام دكان البقال، وأيضًا أمام دكان الجزار. وأمام البيت نهق حتى كاد يتحول النهيق إلى زغاريد.

في صبيحة اليوم الموالي، وصل صاحبنا إلى دكان مواد البناء راجلاً. رآه الحمار ونهق نهيقًا بين الحزن والفرح. طلب من الحمال تحميل البضائع، ولما بلغا المكان رأى الحمال عمالاً كُثر يتعاونون. وأما سيارة "محند 75" فلاحت قطعة خردة. رماها الحمار بحجر قذفه بحافر قائمته اليسرى، ونهق نهيقًا حادًا ولما كان الانضغاط قويًا في مستوى قوة الفرحة، مع (خطأ سوار المكبس) تسرب الضغط للناحية الخلفية وخرج ضرطا ارتفعت له الذيل، تلت ذلك أبعار فرحت الأرض باستقبالها...

• • • •

أولاد القايد

يحكى أن في إحدى القرى النائية، مسالكها وعرة، يعيش أهلها على قليل من الفلاحة الموسمية وتربية الماعز، في عزلة تامة عن العالم الخارجي، غير مسلك ضيق لا يتسع إلا لسيارة القائد، وفي غالب الأحيان تجرفه سيول المطر، ويحمل القائد الشباب كرهًا وطوعًا على إعادة بنائه كلما جرفته سيول الأمطار. في معزل عن أبجدية العلم، وحروف الوقاية الصحية وحتى الإسلام الذي نزل بثقله في كل بقاع العالم لم يتمكن من إنزال ولو كتاب قرآني في هذه القرية، وإذا حدث أن أبدى أحد القرويين رغبة في التعبير عن حاجة القرية إلى فقيه يعلم الأبناء ويؤم الناس، علمت بنواياه عيون القايد. قبل أن يعقد العزم على الكلام، تكون أيدي القايد الباطشة قد ساقته إلى"البيرو" ليُرى ويُذاق، العذاب الأليم جراء ما كان ينوي. ويسجن في دهليز القصر حتى يكون عبرة. وإذا لم يرعو نفي من القرية وغادرها بلا رجعة.

يعيش أهل القرية، على بدعة توارثوها، لاشك أنها سُنَّة قديمة شرعها أحد الشهوانيين مستغلاً جهل الناس وبساطتهم

وسذاجتهم، وتتعلق بصلاحيات القائد، إذ له كامل الحق في افتضاض بكارة كل عروس قبل ولوجها بيت زوجها. تُحمل إليه على متن سيارته، دون أن تتحرك آليًا، بل عن طريق تناوب كبار القرية على دفعها رباع، رباع، إلى غاية القصر. وفي صبيحة الليلة الأولى يحمل أهل العريس الهدايا إلى القصر، طعام وافر من لحم وعسل وسمن، وسبع خراف من بين أجود ما يضمه القطيع. تبقى العروس بعد ذلك ضمن حريمه ليعاشرها طيلة الأسبوعين الثاني والثالث من دورتها الشهرية، ثم تُزَفّ بعد ذلك إلى بيت زوجها، في موكب بهيج تُحمل على ظهر دابة، محاطة بالزغاريد، وخرقة بيضاء، عليها أثر الدم ترفرف في الفضاء، مشدودة إلى قصبة مثبتة على مطية العروس. حتى أصبحت القرية تسمى "قرية أولاد القايد" تشيع أخبارها بين القبائل الأخرى، وأبناؤها محط سخرية وتنكيت، وأبطالاً لكل الطرائف المرتبطة بالهنات والمثالب، لا تكاد تسمع نكتة من أحدهم أو طريفة لا تبدأ بـ: كان أحد أبناء قرية أولاد القائد...

حدث يومًا أن كان أحد غلمان القرية ـ وكان بكر العائلة ـ يرعى القطيع، غير بعيد عن عمار القرية، يبحث عن ألفة في حركة المكان من حوله. فإذا بالصوت المنبعث من محرك سيارة القائد يملأ سمعه. توقفت السيارة، نزل عصا القائد، نادى على الراعي، أقبل الغلام نحوه ملبيًّا، همس في أذنه مطولاً، ومضت السيارة وعاد الغلام إلى قطيعه...

- أبي لقد حظيت اليوم بشرف رؤية القائد عن قرب، وكلمني السائق.

- اللهم اجعله خيرًا يا رب، تكلم ماذا كان يريد منك؟

- حملني رسالة، أبلغك أياها، لكن لم أفهم منها شيئًا.

- هات أرحني ! ماذا قال؟ أعد ما سمعت بالحرف لا تنقص ولا تضف !

- قال: انقل لوالدك هذا الكلام في حضور والدتك

- أي كلام ؟ تحدث !

- لكن أين أمي؟ نادها يا والدي، في الانتظار، أحاول تجميع ما سمعت منه

بعد وقت يسير حضرت الأم التي كانت منشغلة بحلب الماعز قبل أن توقظ النار الخامدة، كالعادة لتصب اللبن في القدر الذي كان شبه جاهز قبل جنوح الشمس إلى المغيب..

- يقول القائد..

- ماذا أراد منا يا بني؟ ألا يدعنا وشأننا؟

- "أبلغ والديك أن ابن القائد لم يعد صبيًا، بل أصبح رجلاً، أضحى يشتغل، ويكسب، والقائد يطمع في أن يحظى بنصيبه من عرق جبين ابنه".

التفت القروي نحو زوجته، التي التفتت بدورها إلى الناحية الأخرى تلافيًا لنظرته الشزر الحبلى بالاتهامات وكأنها

المسؤولة الوحيدة على الوضع النفسي المزري الذي أجبرتهم عليه حياتهم طيلة ما يزيد عن عقدين من الزمن، خاصة أن الابن أصبح تدريجيًا يعي الحياة من حوله.

ساد صمت رهيب طيلة الليل، لا أحد يجرؤ على محادثة أحد. وكلما سأل الابن أحد والديه: ما علاقتكما بابن القائد؟.. تلقى نفس الإجابة:

- لا تشغل بالك يا بني فالموضوع لا يستحق أي اهتمام.

لم يغمض للأب ليلتها جفن. قضاها بيضاء، يفكر في سبيل يجنب ابنه ما لا تحمد عقباه. "أأحمل إليه جديًا، وهو لا يقبل إلا الخراف؟ وحتى إذا فعلت وفعل، هل سيعفيني في ما يستقبل من الزمن؟ ألن أبقى عرضة للتهديد كلما عن له ابتزازي؟ كلا، لن أنهج هذا السبيل".

وتحت جنح الليل، وقبل صبيحة اليوم الموالي، كانت الأمتعة والمؤونة على ظهر الدواب استعدادًا لمغادرة القرية. لم ينس التفكير في تبرير يقنع ابنه على الخصوص بالرحيل: "رأيت في المنام أن القرية تعرضت لحريق مهول أتى على الأخضر واليابس، وتلته عاصفة هوجاء، جاءت بسيل عارم جرف الأرض ومن، وما عليها، فرأيت الأبناء يقتاتون من لحم آبائهم. لم يعد لنا أمل في الحياة هنا ".

أيقظ الجميع، أمر طفلتيه بسوق القطيع في اتجاه المسلك المؤدي إلى الطريق المعبد الذي يتطلب بلوغه ما يزيد عن يوم كامل مشيًا.

لم يقتنع الغلام، وزادت شكوكه خاصة لما ربط ما حدث أمس بما يحدث الآن وقرر البقاء في القرية حتى يفك اللغز الذي بات يقض مضجعه. وناشد والده أن يمده ببعض رؤوس الماعز حتى يضمن لنفسه بعض الطعام. رغم كل ما أبداه الرجل من محاولات ومن تعنت ومن إصرار على رحيل ابنه، ومن عدم الموافقة على طلب ابنه لم ينجح في تغيير موقف الغلام، وما له إلا أن يرضخ لطلبه وهو يوصيه أن يجتنب كل مسلك يوقع به في طريق القائد. لكن بعد برهة غير رأيه وتراجع عن فكرة الرحيل وصمم البقاء إلى جانب ابنه. موقف آخر يزكي شكوك الغلام...

أخذ يخرج باكرًا، يقود قطيعه، بعيدًا عن أنظار القرية وأهلها، لا يعود إلا وقت نامت القرية. وقد يقضي ليله في الجبل يتأمل الكون من حوله، كما يتأمله في وضح النهار، وهو ينظر إلى ماعزه في دأب متواصل لملء جوفه، يرى بعضه يقف على قائمتيه الخلفيتين وبالأماميتين يحاول الإمساك بفرع الشجرة ويمد عنقه في عناء طلبًا لأوراق يستطيب طعمها. يراقب حركة النحل، وأذنه مشدودة إلى زقزقة طير يملأ رحابة الفضاء، أو من حين لآخر يمد بصره إلى آخر وقد حلق عاليًا يبدو ثابت

العزم عارقًا بوجهته، يتمنى لو كانت له إرادة وحرية الطائر وإلى حيث شاء يطير، وكأنه "حي بي يقظان" في تأملاته الفلسفية.

وفجأة أدركه مطر غزير، أسرع ناحية كهف قريب ليحتمي به وماعزه، ينظر إلى الأفق المظلم منتظرًا توقف المطر، لاحظ انفراجًا تدريجيًا في السماء، وبرودة شديدة عمت الأجواء، وسرعان ما أخذت الثلوج تتهادى في هبوطها كأنها قطع من من مندوف القطن الناصع البياض، تتراكم على الصخر أمام عينيه عند مدخل الكهف. أخذ بدنه يرتجف وأسنانه تصطك، لا يكاد يتحكم في حركة أصابعه، فطن إلى ما قد يؤول إليه حاله، نظر من حوله ليقع بصره على كومة حطب جاف وقطع منه غليظة، وضع عليها أوراقا جافة، وكان عليه أن يقدح نارًا، بعد عناء وتعب كبيرين تتطايرت شرارات متلاحقة أصابت أوراقا فاشتعلت وبعناية فائقة تعهدها إلى أن رأى اللهب يكبر وألسنته تتسابق في الفضاء. وهو من حين لآخر يطعمها جذوة. فجأة تصاعد لهيب أزق ينمو إلى أن لامس سقف الكهف. أمام أعين الغلام الذاهلة انتصب كائن نوراني عملاق بلون المرجان. ذعر الغلام حتى تحدث لغة فتحتيه السفليين الأمامية والخلفية. رغم النار الملتهبة رغم دفء المكان بقي جسمه يهتز مرتجفًا إلى أن أغمي عليه...

استفاق الغلام، ينظر من حوله الذي يخلو من كل شيء عدا قطيعه. أخرج قطيعه لا يفكر إلا في ذلك المخلوق النوراني ويتمنى عودته طيلة النهار.

لما نزل الليل وأخذ الجو يبرد، قدح الغلام النار وجلس مركزًا بصره على اللهيب، حدث أن قرع سمعه صوت من خارج الكهف، رفع بصره إلى الخارج ليبقى مشدودًا إلى هالة من ضياء في الأفق البعيد أخذت تدنو في سرعة البرق وكأنه بعملاق ليلة أمس يطير به براق في اتجاه الكهف وما هي إلا ردة طرف حتى وجد جسم العملاق الأزرق منتصبًا أمامه. دون هلع شديد، ودون سخاء من فتحتيه وقف يرحب بالزائر الذي طفق يلبي:

- لبيك، بُعثت إليك عبدًا مأمورًا فانظر ما أنت فاعل قبل بزوغ الفجر.

- أريد تجميع وإحضار كل أبناء القرية من هم بنفس حالي (أبناء القايد).

- سمعًا وطاعة.

اختفى ليعود في لمح البصر ومعه الطلب، أخذ الشباب وغير الشباب، الكهول والشيوخ والأطفال إناثًا وذكورًا كأنهم يتقاطرون من سقف الكهف، حتى خال الغلام أن آباءه وأجداده والأمهات والجدات إخوة له، لكن شاءت الأقدار أن يكون الآباء والأجداد أبناء قواد سابقين مروا من هذه القرية.

مـا أن شـرع الغـلام فـي الكـلام عمـا اقترفـه القائـد وسـابقيه مـن القـواد فـي حـق أمهـاتهم وفـي حـق آبـائهم وفـي حقهـم هـم بالخـصوص، ومـا كـان يبتـزه مـن عـائلاتهم بـدعوى حقـه فـي مكاسب أبنائه، حتى انبرى الكل يعبر عن الألم الذي ظل يجثم على صدره... وقبل بزوغ الفجر، وقبل أن يدرك الفجر العملاق، كانـت الجماعـة قـد نـاقـشت القـضية بمنتهـى الجديـة، وخرجـت بقرار، ينص بإلحاح على تفعيل القرار وأجرأتـه، الليلـة وبـدون انتظار. وافق الجميع، على المبدأ، ثم شكلوا لجينـات تنتخب كل واحدة رئيسًا ترضخ لأوامره، اجتمع الرؤساء، وضعوا خطة، ثم وقفت كل لجنة تحت قيادة رئيسها تـؤدي قسم الانعتاق. وملأ المكان وهج من النور الأزرق وفي لمح البصر كان الجمع يحتل ساحة القصر، وعلا صوت عبر مكبر تملأ أصداؤه الأرجاء: أيهـا الأب غيـر الـشرعي، هـؤلاء أبنـاؤك، ثمـار مرضـك أيهـا الجبان. اليوم تمثل أمام عدالتنا...

• • • •

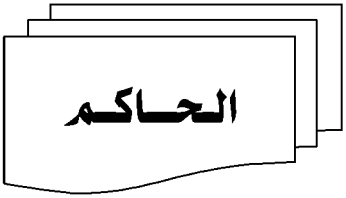

فـي إحـدى القـرى الهادئـة، سـكانها أهـل صـلاح، يحترمـون أنفسهم، ينحتـون رزق يـومهم بعرق جبينـهم، لا يهتمـون لغير أمـور حيـاتهم، يحرصـون أن يـسودها الطمأنينـة والهـدوء. يعيشون تحت نظام حاكم، يحسنون إليه دون أن يلقوا بـالاً لقول من قال :"اتق شر من أحسنت إليه" غافلين عن قول من قـال: "... وإذا أكرمت اللئيم تمرد".

سئم الحاكم رتابة الحياة في هذه القرية، يقضي يومه في علبته، لا تبلغـه شـكوى ولا يتوصـل بـدعوى، وكـأن القريـة لا تحتـاج لخدماته.

لما كانت الحركة من حوله منعدمـة كـان يبعث عصاه فـي جولـة روتينية ويخلو لـه الجو ليعبث كمـا يشاء دون أن يزعجـه أحد. طال الزمان دون أن يختصم اثنان، ولا تقاضى امرؤان، دون أن يرتكب أحدهم جرمًـا ولا أذنـب سـهوًا أو عمدًا. فاستاء الحـاكم، بعث عصاه تستفزهم في السوق دون جدوى.

واقع يذكر بما يروى في حق أحد المعلمين في إحدى القرى النائية، حيث كان الأهالي يكرمونه قدر إمكانهم، ولما كان جشعًا أخذ يرغمهم عن طريق الضغط على أبنائهم... ولما عيل صبرهم قرروا ألا يمدوه بشيء. عندما رأى المعلم من موقفهم الجوع. ، التجأ للحيلة... طلب المعلم من تلاميذه إحضار بيضة كوسيلة إيضاح تعليمية ضرورية لإنجاز الدرس. في المساء أخبر التلاميذ آباءهم وكانوا على صلة بينهم. وافقوا على إحضار أبنائهم البيضة إلى القسم على أن تعاد إلى البيت عقب انتهاء الدرس. ولما انتهى المعلم من شرح درسه، أمر التلاميذ بالإجابة عن الأسئلة كتابة، ليس على الدفتر بل على البيضة. وكانت الأسئلة على النحو التالي، والجواب اختيار من متعدد:

- ما الذي يعطينا البيض؟ الماعز - الطيور - النساء

- هل السلحفاة تبيض؟ تلد؟

- ما الذي يخرج من البيضة؟ الجحش - الفرخ - الحمل؟

وبعد أن كتب كل تلميذ اسمه على البيضة طلب المعلم وضع البيض مثنى مثنى على حافة طاولات الجلوس، وأمر تلميذًا من كل صف ممن يجلسون في المقعد الأول من الصف، وهو يقول:

- اجمعوا البيض، واحذروا أن تكسروه، سأصححه، وتحسب النقطة في معدل الامتحان !

في أحد أيام رمضان الكريم، أمر الحاكم عصاه بإحضار ضحية..

- لكن سيدي كيف ذلك فالناس يحترمون أنفسهم، إذا لاحقتهم إساءة ابتعدوا فارين منها.

- أريد ضحية وكفى !!

خرجت عصا الحاكم يتحدثان إلى بعضهما عن كيفية استذناب أحدهم، قال أحدهما :

- نقوم بجولة قد نعثر على مخالف للقانون، ونمضي به إلى الحاكم.

طالت الجولة ولا مذنب..

- ما العمل يا صديقي؟ إذا لم ننفذ ما ائتمرنا به، سيتهمنا بالتقصير، وكلمته هي العليا...

- فلنفكر فيما يرضيه ويرضينا ويرضي الله !

- فدنا يا عبقر !

وهما يمشيان جنبًا إلى جنب وقع بصر أحدهما على شخص نائم إلى ظل صخرة، فاختلفا نحوه، أيقظاه..

- قم ! ألا تدرك أن النوم هنا يشكل خطرًا عليك، ويسبب لنا الإزعاج ؟

قام الرجل يريد المغادرة فاستوقفه أحدهما..

- ما هذه العلبة المطلة من الجيب؟ سجائر، أتدخن في عز النهار؟

أردف زميله:

- أنت ترتكب جريمتين، تدخن والتدخين حرام، ومن جهة أخرى تدخن في شهر الصيام وهذه جريمة في حق الدين وفي حق البلاد وفي حق ولي أمر القرية المسؤول الأول أمام الله.

- إذن... خذ سيجارة، خد الولاعة

أخذ السيجارة بيسراه وأمسك الولاعة بيمناه

- أشعل السيجارة.

وجه السيجارة نحو لهب الولاعة

- أهكذا تشعل السجائر؟ ضعها في فمك !

- ولكنني صائم !! هذا غير معقول !!

- قلت أشعل السيجارة

وهو يسحب الهراوة وقلده في ذلك صاحبه.

في سره ودون أن يكلف شفتيه المشققتين عناء الكلام " لا بأس أفطر فإفطاري من باب طاعة أولي الأمر. ولكن أين أنا من تحريم طاعة المخلوق في معصية الخالق، يا إلهي أنجدني وخلصني من هذه البلوى !

- أسرع ! ماذا تنتظر ؟

دون أن يخرج عن صمته: " سأشعل، عملاً بأمر الله لا بأمر العبد - وأمري لله -"

سيق المفطر نحو مكتب الحاكم، يقبض أحدهما على حزامه من الخلف، حتى ابتلع شق مؤخرته سرواله، يمشي أمامه نصف محمول كمشية رواد الفضاء على القمر، دفع به داخل المكتب دون أن يستأذن. قام الحاكم وهو ينفث الدخان ويقول مرتبكًا:

- ما هذا؟ ألا تحترم حرمة المكتب، لم جئتما بهذا الرجل؟

لم تكن العصا يتوقعان أن يريا ما رأياه من أمر الحاكم، ورد أحدهما يتلعثم:

- يا سيدي لقد عثرنا على هذا الشخص صا... لا، مف.. لا، لا، نا.. نا.. نائما...

• • • •

المؤلف في سطور

- عيسى أحمد حموتي أوري
- شاعر وقاص مغربي من مواليد مدينة وجدة، عام 1955م
- حاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الأول، وجدة – المغرب
- نشرت قصائده وأعماله القصصية في العديد من الصحف والمجلات.

- الإصدارات :

- تضاريس القلق : شعر .
مطبعة الجسور، وجدة – المغرب، 2010م

- التحدي : مجموعة قصصية

- أوريات "أو مجنون بنت الريف" : شعر
شمس للنشر والإعلام، القاهرة 2011م

- الهجرة المعكوسة : رواية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة 2012م

- أولاد القايد : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة 2012م

- البريد الإلكتروني: aissa.hamouti@gmail.com

الفهرس

- قل لها أف 9
- التحدي 13
- ساحر النظام 19
- الإسطبل 25
- التقرير 31
- محاكمة 37
- مصير 45
- نعم للرشوة 49
- الحمَّال 53
- التبني 59
- تمثال شهريار 65
- الحمار الحزين 75
- أولاد القايد 81
- الحاكم 89
- المؤلف في سطور 94

شمس
للنشر والإعلام
(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net